

شرح عقيدة الكلوذاني

للإمام أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني
رحمه الله (ت ٥١٠هـ)



شرحه
سماحة الشيخ العلامة
د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله (ت ١٤٣٠هـ)

أعيد طبعه بإشراف مؤسسة الشيخ عبد الله ابن جبرين الخيرية



العقيدة



ح مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن جبرين، عبدالله بن عبدالرحمن
شرح عقيدة الكلوذاني./ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين
- ط ٢ - الرياض، ١٤٤١هـ
١٦٨ ص؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٠ - ١٢ - ٨٢٢٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- العقيدة الإسلامية أ- العنوان
ديوي: ٢٤٠ ١٤٤١/٩٩٧٦

رقم الإيداع: ١٤٤١/٩٩٧٦
ردمك: ٠ ـ ١٢ ـ ٨٢٢٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ١٤٢٦١٠٠٠ ١ ٩٦٦+
فاكس: ١٤٢٦٣٧٠٠ ١ ٩٦٦+
جـوال: ٠٠٨٠١٠٠ ٥٦ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com
book@ibn-jebreen.com

أسهم في طباعته بعض محبي الشيخ رحمه الله
ليباع بسعر تشجيعي فجزاهم الله خيرًا



مؤسسة ابن جبرين الخيرية
Ibn Jebreen Foundation



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فحيث إن مؤسسة ابن جبرين الخيرية بعد وفاة سماحة الشيخ الوالد عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله حملت مهمة نشر تراثه العلمي، وحصلت من ورثته على الحق الحصري لنشر تراثه من كتب وغيرها.

وقد قامت المؤسسة بعدة خطوات في ذلك منذ وفاة الشيخ رحمه الله؛ حيث عملت على جمع المواد الصوتية والمرئية وتصفيتها وفهرستها وترتيبها وتفريغها، وجمع ما كتبه الشيخ بخط يده أو أملاه من كتب ورسائل وفتاوى؛ وذلك لإخراجها في عدد من المنتجات الورقية والإلكترونية والصوتية وغيرها.

وفي خطوة للتعجيل بنشر بعض كتب الشيخ رحمه الله وقع اختيار المؤسسة على عدد من الكتب التي عمل عليها بعض طلاب العلم من تلاميذ الشيخ رحمه الله وغيرهم، وكان اختيار هذه الكتب لسببين: وهما: أهمية الكتاب، وكون العمل فيه متقنًا في الجملة.

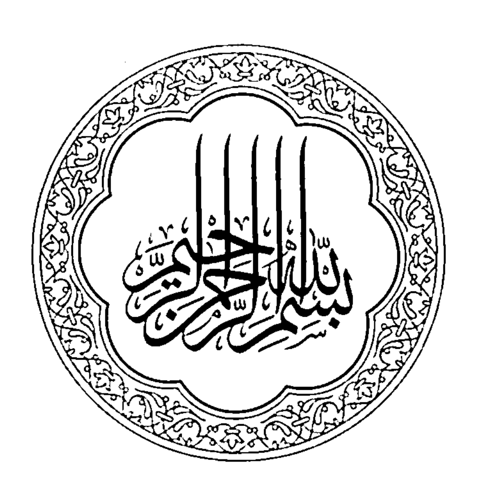
وكان من هذه الكتب كتاب (**شرح عقيدة الكلوذاني**). والذي اعتنى به وطبعه سابقًا الشيخ (**الدكتور طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر**)؛ فندعو الله أن يثيبه ويجزيه خيرًا على ما بذل من جهد.

والمؤسسة إذ تسعى في إعادة طباعته رغبة في نفع القارئ، وإكمالًا لرسالة الشيخ رحمه الله في نشر العلم الشرعي، وأملًا في أن يستمر أجر هذا العلم لمؤلفه ومحققه ومن سعى فيه.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء سماحة الشيخ المؤلف ومشايخه رحمهم الله، وأن يسكنهم فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

قِسْمُ البَحْثِ العِلْمِيِّ فِي مُؤَسَّسَةِ ابْنِ جِبْرِينَ الخَيْرِيَّةِ




بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المحقق

الحمد لله القائل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل: **(مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)**[١]، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن أفضل ما صرفت فيه الأوقات، وبذلت فيه الأموال، وتعبت في طلبه الأجسام: العلم الشرعي تعلماً وتعليماً، وما ذاك إلا لأن الله جل وعلا رفع شأن العلماء، فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير: «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[٢].

ويكفي العلماء فخراً أن الله جل وعلا استشهد بهم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، فقال عز من قائل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر النبي ﷺ بفضل العلم والعلماء فقال: **(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رضىً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ**

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٣.

الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وإن أمة كثر فيها أولئك العلماء البررة لجديرة أن تصافحها يد السعادة والهناء والعز والإباء. وإذا عرف المسلم فضل العلم والعلماء وعظم منزلتهم وسمو مكانتهم حرص أن يكون قريباً منهم، لينهل من علمهم وأخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالعلماء نجوم في السماء مضيئة، متى أفلت ضل السائرون، ونور في الطرقات المظلمة، متى انطفأ تعثر المارون.

ومن هؤلاء العلماء الأبرار والأولياء الأخيار شيخنا الحفي الوفي الزكي عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين حفظه الله ورعاه، وجعل الجنة بعد عمر مديد بتقوى الله مثواه، فهو من العلماء الذين صاروا بحمد الله أئمة، ومناراً للعلم فهماً، وعلماً للحق، ونوراً يستضاء بهم، وهو ممن اتصلت محامدهم، وعلت مبانيهم، وجمت مكارمهم، فجرد في العلم العناية، وأظهر فيه الكفاية، وصرف إليه اهتمامه، وأوضح للناس ما التبس عليهم فهمه واشتبه، ولذا حرص الكثير من طلبة العلم على ملازمته، وحضور دروسه، وسماع محاضراته وكلماته، فاستفادوا من علمه وخلقه الشيء الكثير، فهو أريحي كريم، رزقه الله تعالى منطقاً سهلاً، وأدباً جزلاً، فأكرم به مورد فضل، ما برح منهله العذب كثير الزحام، وكنت ممن تتلمذ عليه وقت الدراسة النظامية في

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

المعهد العالي للقضاء، ثم تشرفت بحضور بعض دروسه ومحاضراته وخطبه وسماع فتاويه، فانتفعت بحمد الله من ذلك كثيراً، فمازالت شروحه تسرُّ خواطرنا، وتشنِّف أسماعنا، وقبل ذلك استفدت من سمته وخلقه وسماحته، فهو طاهر الثوب، محمود الفؤاد، طاهر الوداد.

ولما كان شيخنا معطاء فياضاً في العلم، لا يطلب منه محاضرة أو كلمة داخل الرياض أو خارجها إلا وافق بنفس رضية، رجوته أن أتشرف بصحبته في بعضها، إذ هو مبارك الصحبة، محمود الشيم، حميد السجايا، فوافق مدعواً له بالتوفيق والسداد، وكنت في طريقنا إلى المحاضرة أعرض عليه ما أشكل علي من كلام بعض أهل العلم، وأحياناً أعرض عليه بعض الأسئلة، فيتفضل بالإجابة والتوضيح والشرح، فيزول ما التبس علي فهمه، ثم عرضت عليه مع طول الطريق في بعض المحاضرات داخل الرياض والسفر في بعضها الآخر أن أقرأ عليه شيئاً من متون العلم ويشرحه، فوافق جزاه الله خير الجزاء، فلله دره ما أرحب صدره، وأكثر صنائعه، وبدأت بالقراءة عليه تارة في السيارة، وتارة في الطائرة، وأحياناً في السكن خارج الرياض، وكان حفظه الله وأدام بركته علينا يشرح ارتجالاً، وبدون سابق تحضير واستعداد، حتى أتممنا بحمد الله وفضله ومنته تسجيل شرح هذه المتون. ثم فرغت هذه الأشرطة وعرضتها على سماحته فكتب لها مقدمات، واقترحت أن تسمى هذه الشروح «سلسلة شروح الطريق» إذ كما ذكرت كان شرحها في الطريق حضراً وسفراً، فوافق نفعنا الله بعلمه على هذا الاسم.

وكان قصدي من هذه التسمية أن يعلم القارئ أن الشيخ متعنا الله بصحته كان يشرح ارتجالاً من ذاكرته ومما حفظه قديماً، ومع ذلك زادت بعض شروح

المتون على مائة وستين صفحة كهذا الشرح، ولو استعد الشيخ للشرح لرأى القارئ أضعاف هذا العدد، ولكن حال دون تحضير الشيخ واستعداده مشاغله الكثيرة، وأعباؤه الجسيمة، ومحاضراته، وندواته، وأحاديثه، وكلماته في المساجد والمناسبات وبعض المجلات، ودوراته العلمية في مناطق كثيرة، وفتح بابه للناس لقضاء حوائجهم، ودروسه اليومية الصباحية والمسائية، فلا عجب أن كان حفظه الله قريع دهره، وكوكب نظرائه، ولو استمع القارئ إلى أشرطة هذه الشروح وهي موجودة لرأى كيف ينقطع شرح الشيخ بضجيج بعض السيارات، وأحياناً بصوت ملاحي الطائرة وهم ينبهون الركاب على بعض الأمور، ومع ذلك كان شيخنا أدام الله نفعه يتوقف أحياناً ويكمل من حيث توقف، ورغم طول مدة التوقف أحياناً إلا أن السامع لا يحس بانقطاع في الشرح، ولا يشعر باختلاف في الصياغة أو تكرار في العبارة ونحو ذلك.

أسأل المولى جل وعلا أن يعلي أبداً شأنه، ويرفع فوق الفرقدين مكانه، إذ بأمثاله أخمد الله شهاب الباطل، وأنار بهم سبيل الحق، كما أسأله سبحانه أن يديم علينا بركته، وأن يمتعنا بسلامته وصحته، وأن يبلغه الرتب الجليلة، والمحال النفيسة، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

تقديم سماحة الشيخ العلامة
د. عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله

الحمد لله المتوحد بالكمال، الموصوف بصفات الجلال، تعالى من مشابهة الأمثال، وتقدس عن قول أهل التعطيل والضلال، نحمده سبحانه على جزيل الإفضال، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثال، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله أفضل من نطق وقال، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأصحاب والآل، **وبعد:**

فإن الله سبحانه تفرد بإيجاد المخلوقات، وتفضل على الخلق بأنواع الكرامات، وخص نوع الإنسان بالعقل والفهم والإدراك، وخلقه في أحسن تقويم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠].

ولما خص نوع الإنسان بأن خلق آدم بيده، وخلق كل شيء له، وسخر له ما في السموات والأرض، وأتم عليه النعمة، كان لذلك هو من المكلفين المعبدين، ففرض عليه معرفة ربه وخالقه، وأمره بعبادة ربه بكل أنواع العبادات، وحرم عليه المحرمات، ووعده على الطاعة والامتثال بجزيل الأجر والثواب في الدنيا والآخرة، وتوعده على العصيان والمخالفة بالعقاب العاجل والآجل، وأقام الحجة، وقطع المعذرة، حيث أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وكلفهم أن يبلغوا رسالتهم إلى أقوامهم ومن أرسلوا إليه، وختمهم بنبينا محمد ﷺ، وجعل شريعته كاملة صالحة لكل زمان ومكان، وذكر أنه خاتم النبيين، وإمام المرسلين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وشهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ والبيان، وأنزل عليه القرآن الكريم، وكلفه بأن يبين للناس ما نزل إليهم،

فعلم أصحابه القرآن لفظه ومعناه، وتولى الله حفظ القرآن ونصوص الشريعة، وصار محفوظًا في الصدور، ومكتوبًا في السطور، وتناقلته الأمة قرنًا بعد قرن، فصار متواتر اللفظ والمعنى.

وهكذا اهتم الصحابة رضي الله عنهم بالسنة النبوية التي هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله، مما يبين به ما أمر الله به من الفرائض والواجبات، والمحرمات والمكروهات، فحفظوا الأحاديث وعلموها تلاميذهم من التابعين ومن بعدهم، حتى دونت السنة وحفظت، وتناقلها العلماء قرنًا بعد قرن، فكان القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدر هذه الشريعة، يسير علماء الأمة على نهجها، ويعملون بما فيهما كمرجع عند الاختلاف، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، فكانوا يتحاكمون عند الاختلاف إلى الرسول ﷺ في حياته ثم إلى القرآن والسنة بعد مماته، ولم يحصل بينهم اختلاف تضاد بسبب التقاطع والابتداع في الدين، حتى كان ذلك في المبتدعة غيرهم.

وذلك أن من حكمة الله وعدله أن اختبر عباده في هذه الحياة الدنيا، وسلط عليهم من يدعوهم إلى الضلال، ليخرجوهم من النور إلى الظلمات، وأقدم الأعداء هو إبليس اللعين، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، فأوقع الكثير في البدع والمحدثات، حتى ضلل وكفر بعضهم بعضًا، وتحقق ما ذكره الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[الروم:٣١ - ٣٢].

فخرج الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، فيجعلون العفو ذنبًا، والذنب كفرًا، وقد حذر منهم الصحابة ورووا في ذلك أحاديث كثيرة مرفوعة تنطبق عليهم.

ثم خرج الروافض الذين غلوا في الإمام علي بن أبي طالب وولديه وزوجته فاطمة، وبعض ذريتها وادعوا فيهم العصمة، ودعوهم وعبدوهم من دون الله تعالى، وطعنوا في القرآن الكريم، واتهموا الصحابة بتحريفه وكتمان أكثره، فكفروا الصحابة وشتموهم، واتهموهم بكتمان الوصية لعلي رضي الله عنه بالخلافة، وزعموا أن الخلفاء قبله مغتصبون، وتقربوا بلعن الخلفاء قبله، ثم كفروا كل من أحب الصحابة أو ترضى عنهم، أو نقل عنهم السنة والحديث، ولم يستثنوا منهم إلا أفرادًا دون العشرة.

وهكذا ظهرت من المبتدعة أهل التعطيل، وكان أشهرهم اسمه الجهم بن صفوان، الذي أنكر صفات الله تعالى، وجحد دلالات النصوص من أسماء الله تعالى على ما تضمنه من الصفات الذاتية والفعلية، وتلقى هذه البدعة طائفة يعرفون بالمعتزلة، واعتقدوا أن إثبات كل صفة لله تعالى يستلزم التشبيه بالمخلوقات، فنفوا صفة العلو والاستواء، والمجيئ والسمع والبصر، والكلام، وصفة المحبة، والغضب، والرضا، والرحمة، وصفة الوجه واليد لله تعالى، ونحو ذلك من الصفات الذاتية، والصفات الفعلية، وسموا هذا التعطيل باسم التوحيد لاعتقادهم أن إثبات هذه الصفات يلزم منه تعدد القدماء، كما يعبرون، ويستلزم حلول الحوادث بالذات الربانية، وقد تلقوا هذا التعطيل عن كتب النصارى والفرس واليونان وأهل الإلحاد، وعن دعاة الضلال من الزنادقة الذين تظاهروا بالإسلام نفاقًا ليضلوا عن سبيل الله، وليوقعوا ضعاف الإيمان في الشك والحيرة.

وقد راجت شبهات هؤلاء المضللين على السذج من الجهلة الذين لم تتمكن العقيدة في قلوبهم، وأما الراسخون في العلم فإنهم يزدادون يقينًا، وتحترق تلك الشبهات عندهم لقوة الإيمان المتلقى عن القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

وقد اهتم علماء صدر هذا الأمة بأمر العقيدة والتوحيد، لما اشتهرت معتقدات المعطلة والمعتزلة، ونفات الصفات الذين يسمون نفيهم توحيدًا،

فأعلن علماء السلف الرد عليهم، وحذروا من مذاهبهم الزائفة، وبينوا الصواب، ودعوا إليه، وكتبوا في العقيدة كتبًا مفردة، أو كتبوا ما يتعلق بالعقائد ضمن مؤلفاتهم الكبيرة، كما فعل البخاري في أول صحيحه وآخره، وكذا مسلم في أول صحيحه، وابن ماجه، والدارمي، وجعل بعضهم كتاب السنة أو الإيمان في ضمن مؤلفه، والذين أفردوا ذلك سموا مؤلفاتهم باسم التوحيد، كابن خزيمة، وابن مندة، أو باسم السنة كأحمد بن حنبل، فله رسالة في السنة، ورسالة في أصول السنة، ورسالة في الرد على الجهمية، ولابنه عبدالله كتاب السنة في مجلدين، وللخلال كتاب السنة، وللبربهاري شرح السنة، وللالكائي كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ولابن بطة الإبانة الكبرى والإبانة الصغرى، وللآجري كتاب الشريعة، وغيرهم كثير.

وفي القرن الرابع وما بعده تمكنت عقيدة الأشاعرة، وقل من ينكرها، وأصبح أهل السنة في تلك القرون رغم قلتهم يلاقون الأذى والإنكار، كما حصل للبربهاري وغيره، وكاد مذهب الإمام أحمد في الفروع والعقيدة أن يتلاشى ويتناسي، حتى أخرج الله الإمام القاضي أبو يعلى، فجدد المذهب ونشر تعاليمه وعقيدته، ورغم مكانته وشهرته أنكر عليه أهل زمانه لما صنف رسالة في إثبات صفة العلو لله سبحانه، ورموه بأنه مشبه ومجسم ومخالف لأهل زمانه، مع أنه اعتمد على النقل عن الصحابة والتابعين، والأئمة والعلماء من السلف، وكان أهل زمانه يعتقدون أن السلف يفوضون معاني الآيات والأحاديث في الصفات، مع أنهم في نظرهم لا يثبتون صفات لله تعالى.

وقد تتلمذ على القاضي أبي يعلى علماء أجلاء لهم مكانتهم وشهرتهم في زمانهم ومن بعدهم، ومن أشهرهم الإمام أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني، منسوب إلى قرية قرب بغداد، وله عدة مؤلفات في المذهب الحنبلي.

وقد نظم عقيدة أهل السنة في منظومة دالية، جعلها على طريقة السؤال والجواب، وقد ذكرها كاملة ابن الجوزي في تاريخه (المنتظم) في وفيات سنة (٥١٠هـ)، حيث ترجم للكلوذاني برقم (٣٨٤٩) في المجلد السابع عشر (ص١٥٢)، وقد ذكرها الشيخ محمد بن مانع رحمه الله تعالى في رسالته (القول السديد)، وفيها بعض النقص والمخالفة في بعض الأبيات، وبعض الكلمات.

وحيث إنها عقيدة مفيدة على مذهب أهل السنة والجماعة، موافقة لعقيدة السلف الصالح وأئمة الإسلام، ولم أطلع على شرح كامل، وإنما شرح ابن مانع بعض الأبيات شرحًا مختصرًا.

كذلك رغب الشيخ الدكتور طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر أن أشرحها بما تيسر، للحاجة الماسة إلى ذلك، فقمت بشرحها ارتجالًا ونحن في السيارة ذاهبين إلى بعض الإدارات، ولم أتمكن من مطالعة شيء من المراجع عند الشرح، وقد سجل الشرح الشيخ طارق وفقه الله، ثم فرغه في أوراق حسب ترتيب الأبيات، وعرضها علي فقمت بالتصحيح وحذف التكرار، وأذنت له في نشر وطبع هذا الشرح، وفي التعليق عليه، وترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، وله الحق في التصرف فيه لأهليته وكفاءته، وفقه الله، وسدد خطاه، ونفع بعلومه، وأصلح له نيته وذريته وعلمه، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وصحبه وسلم.

وكتبه

عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين

١٤/ ٤/ ١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتوحد بالكمال الموصوف بصفات الجلال تعالى من مشابهة الأمثال وتقدس عن قول أهل التعطيل والضلال نحمده سبحانه على جزيل الإفضال ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثال ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من نطق وقال صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأصحاب والآل.

وبعد فإن الله سبحانه تفرد بإيجاد المخلوقات وتفضل على الخلق بأنواع الكرامات وخص نوع الإنسان بالعقل والفهم والإدراك وخلقه في أحسن تقويم وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ولما خص نوع الإنسان بأن خلق آدم بيده وخلق كل شيء له وسخر له ما في السموات والأرض وأتم عليه النعمة كان لذلك هو من المكلفين المتعبدين ففرض عليه معرفة ربه وخالقه وأمره بعبادة ربه بكل أنواع العبادات وحرم عليه المحرمات ووعده على الطاعة والامتثال بجزيل الأجر والثواب في الدنيا والآخرة وتوعده على العصيان والمخالفة بالعقاب العاقل والآجل وأقام الحجة وقطع المعذرة حيث أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وكلفهم أن يبلغوا رسالتهم إلى أقوامهم ومن أرسلوا إليه وختمهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجعل شريعته كاملة صالحة لكل زمان ومكان وذكر أنه خاتم النبيين وإمام المرسلين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وشهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ والبيان وأنزل عليه القرآن الكريم وكلفه بأن يبين للناس ما نزل إليهم فعلم أصحابه القرآن لفظه ومعناه وتولى الله حفظ القرآن ونصوص الشريعة وصار محفوظاً في الصدور ومكتوباً في السطور وتناقلته الأمة قرناً بعد قرن فصار متواتراً اللفظ والمعنى وهكذا اهتم الصحابة رضي الله عنهم بالسنة النبوية التي هي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله مما يبين به ما أمر الله به من الفرائض والواجبات والمحرمات والمكروهات فحفظوا الأحاديث وعلموها تلاميذهم من التابعين ومن بعدهم حتى دونت السنة وحفظت وتناقلها العلماء قرناً بعد قرن فكان القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدر هذه الشريعة يسير علماء الأمة على نهجهما ويعملون

بما فيهما كمرجع عند الاختلاف كما قال الله تعالى (فإن تنازعتم في شيئ فردوه إلى الله والرسول) فكانوا يتحاكمون عند الاختلاف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته ثم إلى القرآن والسنة بعد مماته ولم يحصل بينهم اختلاف تضاد يسبب التقاطع والابتداع في الدين حتى كان ذلك في المبتدعة غيرهم وذلك أن من حكمة الله وعدله أن اختبر عباده في هذه الحياة الدنيا وسلط عليهم من يدعوهم إلى الضلال ليخرجوهم من النور إلى الظلمات وأقدم الأعداء هو إبليس اللعين فقد قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) فأوقع الكثير في البدع والمحدثات حتى ضلل وكفر بعضهم بعضا وتحقق ما ذكره الله تعالى في قوله عز وجل (ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) فخرج الخوارج الذين يكفرون بالذنوب فيجعلون العفو ذنبا والذنب كفرا وقد حذر منهم الصحابة ورووا في ذلك أحاديث كثيرة مرفوعة تنطبق عليهم ثم خرج الروافض الذين غلوا في الإمام علي بن أبي طالب وولديه وزوجته فاطمة وبعض ذريتها وادعوا فيهم العصمة ودعوهم وعبدوهم من دون الله تعالى وطعنوا في القرآن الكريم واتهموا الصحابة بتحريفه وكتمان أكثره فكفروا الصحابة وشتموهم واتهموهم بكتمان الوصية لعلي رضي الله عنه بالخلافة وزعموا أن الخلفاء قبله مغتصبون وتبرؤوا بلعن الخلفاء قبله ثم كفروا كل من أحب الصحابة أو ترضى عنهم أو نقل عنهم السنة والحديث ولم يستثنوا منهم إلا أفرادا دون العشرة وهكذا ظهر من المبتدعة أهل التعطيل وكان أشهرهم اسمه الجهم بن صفوان الذي أنكر صفات الله تعالى وجحد دلالات النصوص من أسماء الله تعالى على ما تضمنه من الصفات الذاتية والفعلية وتلقى هذه البدعة طائفة يعرفون بالمعتزلة واعتقدوا أن إثبات كل صفة لله تعالى يستلزم التشبيه بالمخلوقات فنفوا صفة العلو والاستواء والمجيئ والسمع والبصر والكلام وصفة المحبة والغضب والرضا والرحمة وصفة الوجه واليد لله تعالى ونحو ذلك من الصفات الذاتية والصفات الفعلية وسموا هذا التعطيل باسم التوحيد لاعتقادهم أن إثبات هذه الصفات يلزم منه تعدد القدماء كما يعبرون ويستلزم حلول الحوادث بالذات الربانية وقد تلقوا هذا التعطيل عن كتب النصارى والفرس واليونان وأهل الإلحاد ومن دعاة الضلال من الزنادقة الذين قد تظاهروا بالإسلام نفاقا ليضلوا عن سبيل الله وليوقعوا ضعاف الإيمان في الشك والحيرة وقد راجت شبهات هؤلاء المضللين على السذج من الجهلة الذين لم تتمكن العقيدة في قلوبهم وأما الراسخون

في العلم فإنهم يزدادون يقيناً، وتحترق تلك الشبهات عندهم لقوة الإيمان المتلقى عن القرآن الكريم ومن السنة المطهرة، وقد اهتم علماء صدر هذه الأمة بأمر العقيدة والتوحيد لما اشتهرت معتقدات المعطلة والمعتزلة، ونفاة الصفات الذين يسمون نفيهم توحيداً فأعلن علماء السلف الرد عليهم وحذروا من مذاهبهم الزائغة، وبينوا الصواب ودعوا إليه، وكتبوا في العقيدة كتباً مفردة، أو كتبوا ما يتعلق بالعقائد ضمن مؤلفاتهم الكبيرة كما فعل البخاري في أول صحيحه وآخره، وكذا مسلم في أول صحيحه، وابن ماجه والدارمي وجعل بعضهم كتاب السنة أو الإيمان في ضمن مؤلفه، والذين أفردوا ذلك سموا مؤلفاتهم باسم التوحيد كابن خزيمة وابن منده، أو باسم السنة كأحمد ابن حنبل فله رسالة في السنة ورسالة في أصول السنة، ورسالة في الرد على الجهمية، ولابنه عبد الله كتاب السنة في مجلدين وللخلال كتاب السنة، وللبربهاري شرح السنة، وللالكائي كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ولابن بطة الإبانة الكبرى والإبانة الصغرى، وللآجري كتاب الشريعة، وغيرهم كثير، وفي القرن الرابع وما بعده تمكنت عقيدة الأشاعرة، وقل من ينكرها وأصبح أهل السنة في تلك القرون رغم قلتهم يلاقون الأذى والإنكار كما حصل للبربهاري وغيره، وكاد مذهب الإمام أحمد في الفروع والعقيدة أن يتلاشى ويتناسى حتى أخرج الله الإمام القاضي أبا يعلى فجدد المذهب ونشر تعاليمه وعقيدته، ورغم مكانته وشهرته أنكر عليه أهل زمانه لما صنف رسالة في إثبات صفة العلو لله سبحانه، ورموه بأنه مشبه ومجسم ومخالف لأهل زمانه مع أنه اعتمد على النقل عن الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء من السلف، وكان أهل زمانه يعتقدون أن السلف يفوضون معاني الآيات والأحاديث في الصفات مع أنهم في نظرهم لا يثبتون صفات لله تعالى وقد تتلمذ على القاضي أبي يعلى علماء أجلاء لهم مكانتهم وشهرتهم في زمانهم ومن بعدهم، ومن أشهرهم الإمام أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني منسوب إلى الحربية قرب بغداد، وله عدة مؤلفات في المذهب الحنبلي، وقد نظم عقيدة أهل السنة في منظومة دالية جعلها على طريقة السؤال والجواب، وقد ذكرها كاملة ابن الجوزي في تاريخه (المنتظم) في وفيات سنة ٥١٠هـ حيث ترجم للكلوذاني برقم ٣٨٤٩ في المجلد السابع عشر ص١٥٢ وقد ذكرها الشيخ محمد بن مانع رحمه الله تعالى في رسالته (القول السديد) وفيها بعض النقص والمخالفة في بعض الأبيات وبعض الكلمات، وحيث أنها عقيدة مفيدة على مذهب أهل السنة والجماعة، موافقة لعقيدة السلف الصالح وأئمة الإسلام، ولم أطلع لها على شرح كامل وإنما شرح ابن مانع بعض الأبيات شرحاً مختصراً، لذلك رغب الشيخ الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر أن أشرحها بما تيسر للحاجة الماسة إلى ذلك، فقمت بشرحها ارتجالاً ونحن في السيارة ذاهبين إلى بعض الإدارات، ولم أتمكن من مطالعة شيء من المراجع عند الشرح، وقد سجل الشرح الشيخ طارق وفقه الله، ثم فرغه في أوراق حسب ترتيب الأبيات، وعرضها علي فقمت بالتصحيح وحذف التكرار، وأذنت له في نشر هذا الشرح وطبعه، وفي التعليق عليه وترقيم الآيات وتخريج الأحاديث وله الحق في التصرف فيه لأهليته وكفاءته، وفقه الله وسدد خطاه، ونفع بعلومه، وأصلح له نيته وذريته وعمله، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم، ١٤٢٨/٤/١٤هـ

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

المنظومة

دع عـنك تـذكار الخليط المنجدِ والشوق نحو الآنسات الخرّدِ
والنوح في أطلال سعدى إنما تذكار سعدى شغلُ من لم يسعدِ
واسمع مقالي إن أردتَ تخلُّصاً يوم الحساب وخذْ بهديي تهتدي
واقصد فإني قد قصدتُ موفّقاً نهجَ ابن حنبلٍ الإمام الأوحدِ
خير البريّة بعد صحب محمّدٍ والتابعين إمام كلٍّ موحِّدِ
ذي العلم والرأي الأصيل ومن حوى شرفاً على فوق السُّهى والفرقدِ
واعلم بأني قد نظمتُ مسائلاً لم آلُ فيها النصحَ غير مقلّدِ
وأجبتُ عن تسآل كلِّ مهذّبٍ ذي صولة عند الجدال مسوّدِ
هجر الرُقاد وباتَ ساهرَ ليلِهِ في همّةٍ لا يستلذُّ بمرقدِ
قومٌ طعامهمُ دراسةُ علمهم يتسابقون إلى العُلى والسُّؤددِ
قالوا: بما عرف المكلّفُ ربَه فأجبتُ بالنظر السديد المرشدِ
قالوا: فهل ربُ الخلائق واحدٌ قلتُ: الكمال لربنا المتفرّدِ
قالو: فهل لله عندك مشْبهٌ قلتُ: المشبِّه في الجحيم الموصدِ
قالوا: فهل تصف الإله أبنْ لنا قلت: الصفات لذي الجلال السرمدِي
قالوا: فهل تلك الصفات قديمةٌ كالذّات؟ قلتُ: كذاك لم تتجدّدِ
قالوا: فأنت تراه جسماً مثلنا قلتُ: المجسّم عندنا كالملحدِ
قالوا: فهل هو في الأماكن كلّها فأجبتُ بل في العلو مذهب أحمدِ
قالوا: فتزعم أنْ على العرش استوى قلتُ: الصواب كذاك أخبر سيدِي
قالوا: فما معنى استواه أبنْ لنا؟ فأجبتهم هذا سؤال المعتدي

قالوا: النزول؟ فقلتُ ناقله له ... قومٌ تمسّكهم بشرع محمدِ
قالوا: فكيف نزوله فأجبتهم ... لم ينقل التكييف لي في مسندِ
قالوا: فينظر بالعيون أبنْ لنا؟ ... فأجبت رؤيته لمن هو مهتدي
قالوا: فهل لله علم قلت ما ... من عالم إلاّ بعلمٍ مرتدي
قالوا: فيوصف أنه متكلّمٌ ... قلت السكوت نقيصة المتوحّدِ
قالوا: فما القرآن قلت كلامه ... من غير ما حدثٍ وغير تجدّدِ
قالوا: الذي نتلوه قلت كلامه ... لا ريب فيه عند كلِّ مسدّدِ
قالوا: فأفعال العباد فقلت ما ... من خالقٍ غير الإله الأمجدِ
قالوا: فهل فعل القبيح مراده ... قلت: الإرادة كلّها للسيّدِ
لو لم يرده لكان ذاك نقيصةً ... سبحانه عن أن يعجّز في الرَّدِي
قالوا: فمن بعد النبيِّ خليفةً ... قلتُ: الموحِّدُ قبلَ كلِّ موحِّدِ
حاميهِ في يومِ العريشِ ومنْ له ... في الغارِ مسعدُ يا له من مسعدِ
خيرُ الصَّحابة والقرابةِ كلِّهم ... ذاكَ المؤيَّدُ قبلَ كلِّ مؤيَّدِ
قالوا: فمنْ صدِّيقُ أحمدَ قلتُ: مَنْ ... تصديقُهُ بينَ الورى لمْ يُجْحَدِ
قالوا: فمن تالي أبي بكر الرضا ... قلتُ الإمارة في الإمام الأزهدِ
فاروق أحمد والمهذّب بعده ... نصر الشريعة باللِّسان وباليدِ
قالوا فثالثهم فقلتُ مسارعاً ... من بايع المختار عنه باليدِ
صهر النبيِّ على ابنتيه ومن حوى ... فضلين فضل تلاوةٍ وتهجّدِ
أعني ابن عفّانَ الشهيد ومن دُعِي ... في الناس ذا النورين صهر محمّدِ
قالوا: فرابعهم فقلت مبادراً: ... من حازَ دونهُمُ أُخُوَّةُ أحمدِ

زوجُ البَتولِ وخيرُ من وطِئَ الحصى بعدَ الثَّلاثة والكريمُ المحتدِ
أعني أبا الحسَنِ الإمامَ ومن له بين الأنامِ فضائلٌ لم تُجْحَدِ
ولعمٌ سيِّدنا النبيٌ مناقبٌ لو عُدِّدَتْ لم تَنْحَصِرْ بتعدُّدِ
أعني: أبا الفضلِ الذي استَسْقَى بِهِ عُمَرٌ أوانَ الجدبِ بين الشُّهَّدِ
ذاكَ الهُمامُ أبا الخلائفِ كلِّهم نسقاً إلى المسْتظْهِرِ ابن المقتدِي
صلَّى الإلهُ عليه ما هبت صبا وعلى بَنِيْهِ الرَّاكِعين السُّجَّدِ
وأدامَ دولتهم علينا سرمداً ما حنَّ في الأسحارِ كلُّ مغرِّدِ
قالوا: أبان الكَلْوَذانيُّ الهدى قلتُ: الذي فوقَ السَّماءِ مؤيِّدِي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال أبو الخطاب الكلوذاني ـ رحمه الله ـ في منظومته:

دع عنك تذكار الخليط المنجدِ ... والشوق نحو الآنسات الخرّدِ

والنوح في أطلال سعدى إنما ... تذكار سعدى شغلُ من لم يسعدِ

واسمع مقالي إن أردتَ تخلُّصاً ... يوم الحساب وخذْ بهديي تهتدي

واقصد فإني قد قصدتُ موفّقاً ... نهجَ ابن حنبلٍ الإمام الأوحدِ

خير البريّة بعد صحب محمّدٍ ... والتابعين إمام كلٍّ موحِّدِ

الشرح:

أبو الخطاب هو محفوظ بن أحمد الكلوذاني، من أهل كلوذا، قريةٌ قريبةٌ من بغداد، وهو من تلاميذ القاضي أبي يعلى، الذين تأثّروا به، ونهجوا منهجه، وسلكوا المذهب الحنبلي، واختاره، وألّف في ذلك كتاب الهداية، والمسائل الكبار، ونحو ذلك من المؤلّفات، فهو من مشاهير أصحاب القاضي أبي يعلى الحنابلة، وكثيراً ما يستشهد بكلامه في الفروع، فهو في الأصول والعقيدة كذلك، على مذهب الإمام أحمد، أو على مذهب السلف غالباً، ولو كان قد تأثّر ببعض أهل زمانه، فإنه يغلب عليهم المعتقد الأشعري؛ ولأجل ذلك لمّا ألّف القاضي أبو يعلى كتاباً يتعلّق بالصفات، وإثبات جهةَ العلوِّ لله تعالى، أنكر عليه أهل زمانه، وأخذوا يرمونه بالتجسيم، والتشبيه، ونحو ذلك، واعتذر أنه ما جاء بشيءٍ من نفسه، وإنما نقل عن السلف ما قالوه، وما اعتقدوه، نقلاً

واضحاً، فلا اعتبار إلاّ بكلام السلف، وكذلك الشيخ أبوالخطّاب رحمه الله، له هذه القصيدة التي تتعلّق بالعقيدة، أي: عقيدة أهل السنّة، وقد ذكرها بطولها الشيخ المؤرّخ، عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله تعالى، ثمّ نقلها، أو نقل أكثرها الشيخ محمد بن مانع في القول السديد، وعلّق عليها بعض الشروح لبعض أبياتها.

وهي قصيدةٌ مشهورة، تتضمّن هذه المقدّمة، وتتضمّن بعض العقيدة التي هي عقيدة أهل السنّة، وإن كان فيها شيءٌ من الإجمال، ولكنّ السياق واضحٌ، يدلُّ على أنّ هذا هو قول أهل السنّة والحمد لله.

ابتدأها بقوله:

دع عنك تذكار الخليط المنجدِ والشوق نحو الآنسات الخرّدِ

أي: اترك هذا التذكار، فإنه قد يشغلك عمّا هو أهمّ منه، ولعلّه يريد (بالخليط) الكلام المخلوط، الذي يحتوي على حقٍّ وباطل، سواء ما يتعلّق بالعقيدة، أو ما يتعلّق بالتوحيد، أو ما يتعلّق بالكلام الذي يخوض فيه المتكلّمون، ونحو ذلك، فإنه خليط، ويدّعون أنه منجدٌ .قيل: إنهم ينسبونه إلى أهل نجد، كأنه مرتفع، والنجود: الارتفاع، أنجد يعني: ارتفع، وقيل: إنهم ينسبونه إلى أنه يرفع صاحبه، ونحو ذلك.

أي: اترك هذا الخليط، واترك تذكّره، واشتغل بما هو أنفع منه، فإنك مطالبٌ بهذه العقيدة السليمة، وننصحك بترك الخوض في هذا الكلام الذي لا أهمّية له، والذي يكون مآل أهله إلى الضلال، وإلى الشكّ والحيرة، كما هو الواقع في حال كثيرٍ من المتكلّمين، الذين اشتغلوا بعلم الكلام كانت نهايتهم

الحيرة، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام بن تيمية في مقدِّمة الحموية، وذكره ـ أيضاً ـ ابن أبي العزِّ في شرحه للطحاوية، فذكر أمثلة تدلُّ على أنّ المتكلّمين كانوا في النهاية لا يعرفون ما يعتقدون، ويموت أحدهم على عقيدة العجائز، أو عجائز نيسابور، فهكذا ينصح كلّ عاقلٍ أن يترك توليد هذا الكلام، واشتغاله به.

كذلك أيضاً نصحه عن الشوق نحو الآنسات الخرّد.

الشوق والاشتياق: هو الاندفاع بشهوةٍ، والاندفاع بقوّةٍ إلى شيءٍ يشتاق إليه يحبّه، ويفضّله، وكأنه يريد بالآنسات: النساء اللاّتي لم يتزوجْنَ، فإنه يطلق على البكر أنها آنسة، أي: أبكار.

الخرّد: يعني: من صفتهنَّ الجمال والزينة، التي يحصل بها الاندفاع نحوهنَّ، أي: اعرض عن ذلك واترك الشوق نحوهنَّ، فإنّ ذلك ممّا يشغل البال، وممّا يؤدّي إلى الضلال، أو الحيرة، أو الانشغال بما لا أهمّية له، وفوات الخير، وفوات الأمور المفيدة إذا انشغل بنحو ذلك، وإن كان مطلوباً منه أن يعفَّ نفسه، بأن يقتصر على زوجةٍ حلالٍ، أو أمةٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ...﴾ [المؤمنون: ٦].

ثمّ لا يندفع وراء تتبّع الآنسات، وتتبّع ما يذكر عنهنَّ، وشغل قلبه بتذكّرهنَّ، ونحو ذلك.

ثمّ يقول:

والنوح في أطلال سعدى إنما تذكار سعدى شغل من لم يسعدِ

عبّر بالنوح عن الاشتياق كثيراً كما تفعل النائحة، التي تنوح على ميّتٍ أو نحوه، فالنوح يراد به: البكاء الشديد، والنياحة والتأثّر بالمصيبة، ونحو ذلك،

والأطلال: الأماكن والآثار التي تدلّ من قبل ذلك الإنسان، والتي يعرف منها أنها آثار هؤلاء، على حدِّ قول بعض الشعراء:

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولا شكٌّ أنّ النوح على الأطلال، وتذكّر تلك الآثار هو - أيضاً - ممّا يشغل البال، وممّا يضيّع الأوقات؛ فلأجل ذلك ينهى عن النوح والنياحة في تلك الأطلال، وعبرّ بسعدى، كأنه يمثّل أنّ بعض الناس يشتاق إلى زوجةٍ، يتذكّر أماكنها، ويتذكّر آثارها، امرأةٍ حسنة، أو أيّة امرأةٍ تسمّى بسعدى، أو ما يقارب هذا الاسم، فأطلالها: يعني آثارها، لا تحتاج إلى أنك تتذكرها، وأنك تنوح عنها، وتذكار سعدى: أي: تذكّرها، والانشغال بها كثيراً، **(شغل من لم يسعد)** أي: ينشغل به من حرم السعادة، وقرب أن يكون من أهل الفوات، أي: فوات الخير والشقاوة بفوات العلم النافع، وما أشبه ذلك.

ثمّ يقول: بعد ما نهى عن هذه الأشغال التي تصدّ عن الخير.

واسمع مقالي إن أردتَ تخلُّصاً يوم الحساب وخذْ بهديي تهتدي

أي: استمع إلى ما أقوله لك في هذه الأبيات، وما يشبهها من النصائح، وتأمّلها، واعتقد لما تدلُّ عليه، وأكثر من تأمّلها وتدبّرها، وأدلّتها، ونحو ذلك، هذا إذا كنت تريد التخلّص يوم الحساب، أي: تقصد وتحبّ أن تتخلّص يوم الحساب، من الجحيم، ومن العذاب المهين، ومن الشقاوة ونحوها؛ فإنّ الذي يكون على هذه العقيدة يرجى له - إن شاء الله - أن يكون من أهل الخير، وأن يخلّصه الله - تعالى - من عذاب الآخرة، ويرجى أن يكون من أهل السعادة، وإذا أخذ بمثل هذه المقالة، وهذه الأبيات الطيبة، واعتقد ذلك، خلّصه الله يوم الحساب، فحاسبه حساباً يسيراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، وهداه ووفقه

وسدده، ما دام أنه متمسك بهذا الهدي، الذي هو هديُ النبي ﷺ وهدي الصحابة وسائر على نهج الأئمّة المقتدى بهم. فيقول:

وخـــذْ بهديـــي تهـــتد

تكون من المهتدين في الدنيا وفي الآخرة، ويفهم من ذلك: أنّ من لم يأخذ بهدي السلف، ولم يسرْ على نهجهم فإنه أولى بأن يكون غير مهتد، أي يكون ضالاً والعياذ بالله؛ فإنّ ضدّ الهدى الضلال.

ثمّ يقول:

واقصد فإني قد قصدت موفّقاً نهجَ ابن حنبلٍ الإمام الأوحدِ

أي: **(اقصد)** يعني: توجّه للشيء، وسرْ خلفه، واسلك سبيله، وقد يراد بالقصد الاقتصاد، يعني: اقتصد في الأمور، واقتصر على هذا الحدّ الذي أنت مكلّفٌ به، الذي فيه الخير، وإيّاك أن تتجاوز الحدود المحدودة.

(فإني قد قصدتُ ـ موفّقاً ـ نهجَ ابن حنبل) كان الكلوذاني متمسّكاً بمذهب الإمام المشهور أحمد بن محمّد بن حنبل، الشيباني، رحمه الله، والذي يعتبر صدِّيق الأمّة، وهو الذي نصر السنّة، وأقامها بعدما كادت أن تضمحلّ، وبعدما انتشر الشرُّ، وتمكّنت البدع والمحدثات، فوفّقه الله تعالى، وتمسّك بالعقيدة السليمة الصحيحة، وسار عليها، وتبعه على ذلك الكثير من الأئمّة الذين يقتدى بهم، وساروا على نهجه، مع أنه ما جاء بشيءٍ من نفسه، وإنما اتّبع الأدلة السديدة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة، وأقوال سلف الأمّة، نهج على ذلك في أمر العقيدة، وهكذا ـ أيضاً ـ في أمر الفروع، والمسائل الفرعية، فكلُّ ذلك ممّا تميّز به.

فهو صدّيق الأمّة، رحمه الله تعالى، هو الذي صبر على المحنة، وعلى الضرب والجلد، عندما امتحن بأن يقول: إن القرآن مخلوقٌ، فصبر على ذلك، كما وصفه بعض الحنابلة بقوله:

ومذهب الإمام أحمد بن محمّدٍ ... أعني ابن حنبل الفتى الشيباني

ووصفه آخر بقوله:

ويقول عند الضرب لستُ بتابعٍ ... يا ويحكم لكُمُ بلا برهانِ

أترون أني خائفٌ من ضربكم ... لا والإله الواحد المنّانِ

كن حنبلياً ما حييتَ فإنّني ... أوصيك خير وصيّة الإخوانِ

ولقد نصحتك إن قبلتَ فأحمدٌ ... زين الثقات وسيّد الفتيانِ

حمداً لربي إذ هداني لدينه ... وعلى طريقة أحمدَ أنشانِي

واختار مذهب أحمد لي مذهباً ... ومن الهوى والغي قد نجانِي

يقول: إذا قصدت موفقاً نهج ابن حنبل؛ فإنك ـ بإذن الله ـ تكون من أهل الخير، وتسلم من البدع والانحراف، الذي وقع فيه المنحرفون، والمتكلمون، والذين سلكوا مذاهب باطلة في العقيدة، كالمعتزلة، الذين انتشر مذهبهم، وفيه إنكار الصفات، وفيه أشياءُ تفرّدوا بها، وكذلك الجهمية، الذين هم أصل المعتزلة وعمدتهم، فإنهم أوّلُ من أشتهر بإنكار الصفات، إنكاراً كلياً، وكذلك غيرهم من المبتدعة، مثل الأشاعرة، والماتريدية ونحوهم، ممن نبّه على أخطائهم الأئمة، فبينوا ما وقعوا فيه من الخطأ، فأهل السنة هم الذين على مذهب الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، وإن كان كلٌ من أولئك المنحرفين والمعتقدين عقائد مخالفةً يدّعي أنه من أهل السنة، حتى الرافضة ونحوهم، فإنهم يدّعون أنهم هم أهل السنة، يعني: أهل التمسك بالسنّة النبوية، ولكنَّ

الحق شمسٌ والعيون نواظر، فالحق واضحٌ والحمد لله، فمن سلك الحقَّ فإنه على الصراط السويِّ المستقيم.

وقد ألّف الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ مؤلفاتٍ في العقيدة، سار عليها أتباعه، الذين يريدون الحقَّ، فله عقيدةٌ في السنَّة، مذكورة بنصها في كتاب طبقات الحنابلة، في المجلد الأول، وقد طبعت مفردةً أيضاً، فيها خلاصة العقيدة، لم يترك ما يهمُّ أمره إلاّ ذكره فيها، كذلك ـ أيضاً ـ له رسالة اسمها (أصول السنة) وقد شرحناها في بعض الدورات، وطبعت، وطبع شرحها بهذا العنوان (أصول السنة) تكلّم فيها على العقيدة، وإن لم يتوسّع في أمور الأسماء والصفات، لكن ذكر فيها مجمل العقيدة الواضحة، كذلك له رسالة مطبوعة ـ أيضاً ـ محقّقة وهي: الردُّ على الجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن، أجاب على ذلك ووضّحه، ولابنه عبدالله كتابٌ كبيرٌ، اسمه (السنة) وضّح فيه ـ أيضاً ـ عقيدة أهل السنّة، واعتمد في ذلك على الآثار، وعلى النقول، وعلى الأدلّة، والآيات الواضحة ونحو ذلك.

ولتلميذه أبي بكرٍ الخلاّل (كتاب السنّة الكبير) الذي قد طبع، والذي استوفى فيه ما يدور حول مذهب أهل السنّة، فوصف أحمد بأنه الإمام، يعني: المقتدى به، الذي يكون قدوةً لغيره، وينطبق عليه قوله تعالى على لسان عبدالرحمن: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: قدوة، ووصفه بأنه الأوحد، يعني: المتوحّد بهذه الصفة التي تميّز بها لتفرده وتمسّكه بالسنّة في زمانه إلاّ ما شاء الله.

ثمّ وصفه بقوله:

خير البريّة بعد صحب محمّدٍ والتابعين إمام كلّ موحّدِ

البريّة: يعني الخليقة، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ أنّ أهل الجنّة خير البريّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

أي: خير من برأهم الله، يعني: أوجدهم وخلقهم، فالإمام أحمد من خير البريّة بعد صحب محمّدٍ والتابعين، ولا شكّ أنّ صحب محمّد ﷺ، أي: أصحابه لا يساويهم أحدٌ في فضلهم، وفي خيريتهم؛ فلذلك يعتبر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من خير الناس بعد الصحابة، وبعد التابعين، والتابعون هم تلاميذ الصحابة، الذين ساروا على نهجهم، واتّبعوا طريقتهم، وتمسّكوا بهديهم، فهؤلاء هم خير البريّة.

فخير البريّة الأنبياء، وخاتمهم النبيُّ ﷺ ثمّ بعده صحابته، الذين تشرّفوا بصحبته، والذين تمسّكوا بسنّته، والذين حظوا بالعمل معه، وجاهدوا معه، وأخذوا عنه، واقتدوا به.

ثمّ بعدهم تلاميذهم، الذين أخذوا عن الصحابة، ورأوهم، يسمّون التابعين، أي: أنهم تبعوا الصحابة وأخذوا عنهم، فخير البريّة ـ بعد الأنبياء ـ صحابة محمّدٍ ﷺ وخيرهم ـ بعد الصحابة ـ التابعون لهم بإحسان، ثمّ بعد ذلك الأئمّة المقتدى بهم، كالأئمّة الأربعة، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فقد وصف هنا بأنه **«إمام كلّ موحّدٍ»**، أي: قدوة الموحّدين، فكلُّ الموحّدين ـ بإذن الله ـ الذين وحّدوا الله توحيد الأسماء والصفات، وكذا توحيد العبادة، وكذا توحيد الربوبية، فهو إمامهم، أي: أنه إمام لمن جاء بعده، وأراد أن يكون من أهل التوحيد الخالص فإنه يقتدي بهذا الإمام، ويسير على نهجه؛ حتى يحشر في زمرته، ويكون مقتدياً بمن هو قدوةٌ حسنةٌ لأهل الخير.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

ذي العلم والرأي الأصيل ومن حوى   شرفاً علا فوق السُها والفرقدِ

واعلم بأني قد نظمتُ مسائلاً   لم آلُ فيها النصحَ غير مقلّدِ

وأجبتُ عن تسآل كلِّ مهذّبٍ   ذي صولة عند الجدال مسوّدِ

الشرح:

وصف الناظم الإمام أحمدَ ـ رحمه الله ـ بهذه الصفات، التي تدلّ على تضلّعه في العلم، وعلى فضله، وعلى تقيّده بالخير، وبالدليل، فوصفه بأنه ذو العلم، أي: صاحب العلم اللّدنّي، وهو العلم الصحيح، علم الميراث النبوي، يعني: الذي هو علم الكتاب والسنّة، كما قال بعضهم:

العلم قال الله قال رسوله   قال الصحابة ليس خلف فيه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً   بين النصوص وبين رأي فقيه

أي: العلم الصحيح هو الكتاب والسنة، الذي فيه قال الله قال رسول الله، كما أنّ غيره لا يستحقّ أن يسمّى علماً، كما في قول بعضهم:

كلّ العلوم سوى القرآن مُشْغلة   إلاّ الحديث وإلاّ الفقه في الدينِ

العلم ما كان فيه قال حدّثنا   وما سوى ذاك وسواس الشياطينِ

فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من حملة العلم، الذين وهبهم الله علماً جمّاً، نافعاً، حتى ذُكر أنه يحفظ ألفَ ألفِ حديث، أي: مليون حديثٍ، كما ذكر عن أبي حاتمٍ الرازي أنه قال لعبد الله بن الإمام أحمد: إنّ أباك كان يحفظ ألفَ ألفِ حديث، فقال له: كيف عرفتَ ذلك؟ أخذناه عليه بالأبواب، يعني: أبواب

العلم، هكذا، وذكر ذلك ـ أيضاً ـ الصرصري، في قصيدته اللاّمية، يقول فيها:

حوى ألف ألفٍ من أحاديث أسندتْ وأثبتها حفظاً بقلبٍ محصّلِ
أجاب على ستين ألفِ قضيّةٍ بأخبرنا لا عن صحائف نقّلِ

ذكر أنه حوى، يعني: حفظ ألفَ ألفِ حديث، وأنه سئل عن ستين ألفِ قضية، فأجاب فيها (بأخبرنا) دون أن يرجع إلى الكتب، وإلى صحائف النقّل، ممّا يدلُّ على أنّ الله وهبه علماً، ووهبه حلماً وحفظاً، صنّف هذا المسند العظيم، أحاديثه نحو سبعةٍ وعشرين ألف حديثٍ وزيادة، يعني: تقرب من الثمانية وعشرين ألف، كما هو مرقّمٌ في هذه الطبعات الأخيرة، وإن كان فيه تكرارٌ كثير، فيمكن أنه بدون التكرار يزيد على عشرة آلاف، أو يقرب منها، وهذا خيرٌ كثير، ذكروا أنه صنّف كتاب التفسير، وإن لم يوجد، وأنّ فيه مائةَ وعشرين ألفِ حديث، يعني رواها بالأسانيد، كذلك ـ أيضاً ـ طبع له كتاب الزهد، فيه ما يقرب من الألفين، ما بين موقوفٍ ومرفوع، ممّا يدلّ على أنّ الله فتح عليه، وله رسالة في الورع، فيها ـ أيضاً ـ أحاديثُ أسندها، وللإمام ابنه عبد الله مسائله، فيها ـ أيضاً ـ أحديثُ يرويها عن أبيه بالإسناد، وقد طُلِب منه أن يكتب كتباً في الفقه فتوقّف، وكان يحيل على الأحاديث، ويقول: خذوا العلم من النصوص، خذوا العلم من الأحاديث النبويّة، الموجودة بأسانيدها، ومع ذلك كان يُسأل ـ كثيراً ـ أسئلة تتعلّق بالعقيدة، وأسئلة تتعلّق بالأحكام، فكان يجيب عنها.

ثمّ إنّ تلاميذه الذين يحضرونه يكتبونها، أو يحفظونها ثمّ يسجّلونها، يقول ابن القيّم في مقدِّمة إعلام الموقّعين: إنه كان يكره كتابة علمه ـ يعني في الفقه ـ

فعلم الله صدق نيِّته، فكتب من فتاواه نحو ثلاثين سفراً، أي: ثلاثين مجلداً، يقول: منّ الله علينا بها، ولم يفتنا منها إلاّ القليل، فهذا دليلٌ على أنّ الله وهبه علماً.

قوله: **والرأي الأصيل...** أي: وصاحب الرأي الأصيل، كان ينهى عن القول بالرأي، والفتوى بالرأي، ويعتمد على الأحاديث، فالمراد ههنا بالرأي: الاختيار، أي: ما رآه واختاره من الأدلّة، ومن النصوص، ومن المسائل التي أحبَّ أن يقول فيها، وقلَّ أن يقول برأيٍ ليس بسديد، بل الأصل أنه يعتمد الأدلّة، كذلك قد تكثر عنه الروايات، تكون عنه في المسألة روايتان، أو ثلاث روايات، وقد تصل إلى أربع روايات، وذلك حسب الأدلّة، يسأل في وقتٍ، فيستحضر دليلاً ويقول به، ثمّ يسأل مرّةً أخرى، فلا يتذكّر سؤاله الأول، ويتذكّر دليلاً آخر فيقول به، وكلُّها مرجعها إلى الأدلّة، **(فالرأي الأصيل)** يعني: القول الذي له أصل، لا أنه تخرّص، وصفه بأنه أصيلٌ، يعني: معتمدٌ على أصلٍ من كتاب الله، أو سنّة رسوله، أو أقوال الصحابة، كما كان يقدّم أقوال الصحابة على غيرها من أقوال العلماء ونحوهم، إذا وجد في المسألة نقلاً عن أحدٍ من الصحابة فإنه يقول به، وإذا اختلفت أقوالهم فإنه يختار قول الخلفاء الراشدين، ممّا يدلُّ على أنه صاحب ورعٍ، وصاحب جدٍّ واجتهاد.

(ومن حوى شرفاً علا فوق السهى والفرقدِ)

حوى: يعني: حصل على الشرف الرفيع، احتوى عليه وحصل له مكانةٌ في قلوب أهل زمانه، وإن لم يكن يقصد ذلك، بل الأصل أنه كان متواضعاً غاية التواضع، ولا يحبُّ أن يترفّع، ولا أن يرفعه الناس، ولا أن يرفعوا

مكانته، ولكن رفعه الله بالعلم، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فجعل له منزلة في القلوب، يعرفها ويعترف بها كلُّ صاحب سنّة، وكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ يعرف الخير، ويألفه، ويسير عليه، هذه منزلته في قلوب الناس، زكّاه الكثير من تلاميذه، ومن زملائه، بل من مشايخه الذين أخذ عنهم، زكّوه وشهدوا له بالفضل، كما نقل عن الشافعيِّ - رحمه الله - أنه ذكر أنه خرج من بغداد وما ترك فيها أفضل من أحمدَ ابن حنبل، وذكر مثل ذلك غيره من أهل العلم عن الإمام أحمد ، هكذا يكون فضل العلم أنَّ الله يرفع أهل العلم، فله شرفٌ رفيع، وصفه الناظم بأنه ارتفع فوق السها، وفوق الفرقد.

(السها) النجم الخفيُّ الذي يكون بجانب بنات نعشٍ، في أحد جوانبها نجمةٌ خفيّة، لا يراها إلاّ ذو بصرٍ حديد؛ ولذلك يقول بعضهم: من رأى السها فليحمد الله، يعني على أنّ الله رزقه بصراً قوياً ثاقباً.

والفرقد: واحد الفرقدين، نجمان معروفان، يدوران حول الجدْي، اسمهما الفرقدان، ذكرهما الناظم بقوله:

وكلُّ أخٍ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلاّ الفرقدانِ

نجمان رفيعان، المعنى: أنّ الله رفع ذكره كارتفاع السها، وارتفاع الفرقدين، فضلاً من الله ورفعةً لهذا الإمام، وهذه الصفات تدلّ على تضلّعه بالعلم، وتدلّ على أهليته أن يسار على نهجه، ومع ذلك فإنّ النظم ليس مختصّاً بمذهب الإمام أحمد في العقيدة، بل إنّ العلماء الأربعة وأهل زمانهم كلُّهم على هذه العقيدة، كلُّهم يقولون بقول الإمام أحمد في هذه المسائل الاعتقادية؛ ولذلك لماّ أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - امتحن في عقيدته، وصرّح فيها -



كما في العقيدة الواسطية ـ بما يقوله في الأسماء والصفات، وخالفه الأشاعرة الذين في زمانه، وترافعوا إلى السلطان في دمشق، فقال السلطان: أنتم شافعيةٌ، وهو حنبلي، والمذهب الحنبليُّ مذهبٌ معترفٌ به، اتركوه على مذهبه، وعلى عقيدة إمامه، فامتنع شيخ الإسلام أن يقرَّ بذلك، وأن يعتقد أنّ هذا مذهب أحمد، فقال: أنا لا أقول: إنّ هذا مذهب أحمد وحده، بل إنه مذهب الأئمّة الأربعة، عليهم أن يطلعونا على قولٍ من أقوال الأئمّة الأربعة، الشافعي، ومالكٍ، وأبي حنيفة، ومن في زمانهم، كالبخاريِّ، ومسلمٍ، وأهل السنن الأربعة ونحوهم، فهل يجدون قولاً عن أحدِ هؤلاء الأئمّة أنه يوافق قولهم في تأويل الصفات الذي نقلوه عن الأشعري، وأخذه الأشعري عن ابن كلاّب؟ والواقع أنهم لا يجدون ذلك أبداً، بل أقوال الأئمّة الأربعة كلُّها توافق قولاً واحداً، هو قول أهل السنّة.

فالناظم عندما قال:

قصدتُ نهج موفقاً ابن حنبل

أراد: أنه إمامٌ يُقتدى به، ولكن بقيّة الأئمّة على هذا الرأي، وعلى هذا القول، بدون أن يكون بينهم مخالفة الأئمّة، وإنما حدث الخلاف ونفي الصفات من غيرهم بعدهم، أو في زمانهم، ولكن دون أن يكونوا مشتركين في تلك الأقوال، ومعلومٌ أنه حدث مذهب التعطيل في أول القرن الثاني، عند ما اشتهر ودعا بعض الدعاة إلى العقيدة السيّئة، مثل عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، ونحوهما، فهؤلاء هم الذين نشروا هذه العقيدة السيّئة، وأمّا السلف الصالح فإنهم على عقيدةٍ واحدةٍ، هي إثبات الصفات، وكذلك بقيّة العقيدة.

ثمّ يقول الناظم:

واعلم بأني قد نظمتُ مسائلاً لم آلُ فيها النصحَ غير مقلّدِ

أي: نظمتُ هذه المنظومة، وجعلتُ فيها هذه المسائل، التي تتعلّق بالعقيدة، وقصدتُ فيها النصح، لا آلو أن أبذل فيها النصح، أي: ما أقصّر، وما أخلُّ بغير النصح، ما قصدتُ إلاّ نصيحة المسلمين، ونصيحة كلٍّ من يريد النجاة والسلامة، وفعل الخير، وذكر أنه ليس بمقلّدٍ، بل إنه متّبع، وإنما ذكر منهج الإمام أحمد ليدلّ على أن الإمام أحمد متبعٌ وليس بمقلّد؛ فلذلك قال: غير مقلّد، أي: لا أقلّد واحداً بعينه أتقيّد بأقواله إلاّ إذا وافقه الحقُّ، فأمّا إذا وجدت أقوالٌ مخالفةٌ للحقِّ عن أيِّ كبيرٍ أو صغيرٍ فإننا لا نقلّده فيها، بل نتّبع الحقَّ، على ما روي عن بعض الصحابة، أو بعض السلف الذين يرجعون إلى الحقِّ، إذا دلّهم أحدٌ على الحقِّ وعلى الدليل فإنهم يعرفونه، وإنهم يتّبعونه أيّاً كان، يقولون: اقبل الحقَّ ممن جاء به، وإن كان عدوّاً، وردّ الباطل على من جاء به وإن كان صديقاً.

فالحق يجب تقديمه، يقول بعضهم: انظر إلى ما قال، لا إلى من قال، أي: لا تقلّد الرجال، وتقول: فلانٌ أقول بقوله، سواء أصاب أو أخطأ، بل اتبع الحقَّ مع من جاء به، سواء كبيراً أو صغيراً، فيكون قدوتك هو الحقَّ، لا أنك تتقيّد بقول العالم الفلاني، في صوابه وفي خطئه، هذا معنى قوله: **غير مقلّدِ**.

ثمّ يقول:

وأجبتُ عن تسآل كلِّ مهذّبٍ ذي صولة عند الجدال مسوّدِ

رتّب هذه العقيدة على سؤالٍ وجواب، وجعل السائل هو نفسه، يعني: هو الذي صاغ السؤال وصاغ الجواب، ولكن كأنه يقول: إنّ هذا الذي صغتُ

السؤال على لسانه هو كلّ مهذّب، أي: كلُّ إنسانٍ ناصحٍ، عارفٍ، مصيب، قصده الحقّ، لا قصده التقليد.

ثمّ وصفه بقوله:

(ذي صولة عند الجدال مسوّدِ)

أي: إذا كان هناك جدال، وهناك نزاعٌ بين بعض الناس في المسائل العقدية فإنّ هذا السائل الذي وصف بأنه مهذّبٌ تجده يصول بالحقِّ، لا بالباطل، عند المجادلة ويقول به، ويعمل به مهما كان الأمر، ولا يعمل بالباطل، هكذا صاغ هذه المنظومة على سؤالٍ وجواب، ويجيب عن كلّ سؤالٍ حسب ما يحتوي عليه ذلك السؤال.

ولا شكّ أنّ ذلك أحسن؛ لإنه إذا ألقي السؤال عُرف جوابه وكان ذلك أوقع له في قلوب السامعين، الذين يقصدون الحقّ، ويستفيدون منه، وبخاصة إذا كان ذلك السؤال قد أصيغ بصياغةٍ واضحة، والذي صاغه عالمٌ بصياغة السؤال، وكيفية أدائه، فيكون ذلك من أسباب وقوعه في النفس.



قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

وأجبتُ عن تسآل كل مهذّبٍ ... ذي صولة عند الجدال مسودِ
هجر الرُقاد وباتَ ساهرَ ليلِهِ ... في همّةٍ لا يستلذُّ بمرقدِ
قومٌ طعامهمُ دراسةُ علمهم ... يتسابقون إلى العُلا والسُؤددِ

الشرح:

ذكر الناظم الكلوذاني ـ رحمه الله ـ ما قام به من الإجابة عن هذه الأسئلة، التي صوّرها، وألقاها على لسان كل مهذب، وكأنه صاغ الأسئلة وألقاها على نفسه، ثم أجاب عنها، ووصف السائل بهذه الصفات.

الصفة الأولى: أنه مهذّب، بمعنى أنه من أهل العلم الذين هذّبوا أنفسهم، والذين استعدوا للعلم، وللقاءِ العلماء، وللأخذِ عنهم، ويطلق المهذّب على كلّ عالمٍ بليغٍ، إذا قال أفصح عمّا يقوله، وإذا تكلّم اعتبر كلامه علماً.

الصفة الثانية: أنه ذو صولة عند الجدال، إذا حصل جدالٌ مع أهل الباطل وُجدت له صولةٌ، أي: قوةٌ وإقدام، ووجد في كلامه إقناعٌ، وقطعٌ لذلك المجادل، وردٌ لشبهته بالحق وبالصواب.

الصفة الثالثة: أنه مسوّد، بمعنى أنه من السادة، الذين لهم مكانةٌ، ولهم احترامٌ في نفوس الآخرين، والسيِّد والمسوَّد: هو الذي اعتقده غيرُه ذا أهليةٍ، وذا مكانةٍ من الخير، ومن العلم، فيكون من أهل السيادة.

الصفة الرابعة: أنه هجر الرقاد، وباتَ ساهرَ ليله، بمعنى أنه من حرصه وجِدِّه واجتهاده على العلم، وعلى تحصيل العلم الصحيح، قد هجر النعاس، والرقاد، الذي يشغله عن الخير، وعن العلم، وعن الاستفادة، سواء ليلاً أو نهاراً؛ ولذلك وصفه بأنه يبيتُ ساهر ليله، أي: يبيتُ ليله يطلب العلم،

ويقرأ، ويجتهد، ويجدُّ في طلب العلم، ساهراً، متململاً إلى أن يحصلَ على مطلوبه، فيقرأ في كلام العلماء، في مؤلفاتهم، وكذلك ـ أيضاً ـ يتصلُ بهم ويزورهم، ويأخذ عنهم العلم الصحيح، الذي فيه الفائدة العظيمة الكبيرة، فيأخذه في ليله وفي نهاره، حتى يصبح من حملة العلم، الذين يقتصرون على العلم الصحيح، ويتركون ما يشغل عنه.

الصفة الخامسة: علو الهمّة، والهمّة: العزم القويُّ الثابت، الذي إذا اهتمَّ به واصل العمل، حتى يأتيَ على ما يريده من الهمّة العالية، التي إذا حصل عليها ووصل إليها حصل على مطلوبه، هكذا تكون هممُ العلماء، همماً رفيعة، عالية، ليس يثنيهم عن تحقيق ما يهتمون به شغلٌ شاغلٌ، ولا دنيا مؤثرة، ولا تكاسلٌ، وتوانٍ، وتثاقلٌ، فتبلغ بهم هممهم إلى أن ينالوا المراتب الرفيعة العالية.

الصفة السادسة: تحقيقٌ لقوله: **هجر الرقاد**، وهو أنه لا يستلذُّ بمرقد، أي: لا يهنأه النوم حتى يصل إلى مطلبه، بمعنى أنه يترك النوم، ويترك الرُّقاد إلى أن يحصل على الفائدة التي يطلبها، فهذه صفات هؤلاء الذين صاغ الأسئلة على ألسنتهم.

الصفة الأولى: أنهم مهذّبون، صفةٌ ثانيةٌ: أنهم أصحاب صولة عند المجادلة، صفةٌ ثالثةٌ: أنهم سادةٌ مسودون، صفةٌ رابعةٌ: أنهم هجروا الرقاد، وسهروا لياليهم، صفةٌ خامسةٌ: ارتفاع الهمّة، صفةٌ سادسةٌ، أو مكمّلة للصفة الرابعة أو الخامسة: أنهم لا يستلذّون بالنوم وبالرقاد، ثمّ ذكر ـ أيضاً ـ صفةً سابعةً بقوله:

قـــوم طعـــامهم دراســـة علمهـــم

المعنى: أنهم يدرسون ويسهرون اللّيل، ولا يهنأهم الأكل حتى يحصلوا على مطلوبهم، بل لا يتفرّغون لنيل الطعام إلاّ بعدما يحصلون على العلم الذي يطلبونه.

وهذا الوصف وصفٌ شريف، يرقى إليه أهل العلم الذين عندهم همّةٌ، وعندهم طلب.

وقد عرف ذلك من كثيرٍ منهم، متقدِّمين ومتأخرين، فالمتقدمون كانوا يقتصرون على العلقة من الطعام، ويجعلون بقية وقتهم في تعلّم، فلا ينامون إلاّ شيئاً قليلاً، ولا يشغلون وقتهم بالأكل، إنما يأكلون شيئاً يسيراً يسدّ رمق أحدهم، ثمّ بقية وقته في طلب العلم، جدّاً واجتهاداً في الحفظ، وفي البحث وفي التنقيب، وفي الحرص على العلم النافع، وعلى الفوائد القيمة.

وقد ذَكر لنا بعض مشايخنا عن أحد طلبة العلم في الرياض، قبل أكثر من مئةٍ وأربعين سنةً، أو نحوها، أنه هاجر لطلب العلم، وانقطع في هذه البلاد، أي: في الرياض، وسكن في مسكنٍ صغير، قانعاً به، مقتصراً عليه، تبرَّع بعض الجيران بإطعامه، فكانوا يأتونه بعشائه بعد صلاة العشاء، ويضعونه إلى جانبه في حجرته، وهي صغيرة، ولكنّه يشتغل بالنسخ، وبالقراءة، وبالحفظ، ويكبُّ على الدرس، ويستمرّ عليه حتى يكون آخر اللّيل، ويذكر بعضهم أنهم يأتون إليه آخرَ اللّيل وطعامه لا يزال مغطّى إلى جنبه، لم يتفرّغ لتناوله، وإذا ضاق الوقت أقبل عليه وأكله بسرعةٍ، ثمّ رجع إلى مذاكرة دروسه، واشتغاله بالحفظ، واشتغاله بالنسخ والكتابة إلى أن حصل على ما حصل عليه، ذُكِر هذا عن الشيخ حمد بن علي بن عتيقٍ رحمه الله، وأكرم مثواه؛ ولذلك اشتهر بالعلم، وغيره كثير.



هذا معنى قوله:

طعـــامهم دراســـة علمهـــم

ثمّ ختم هذه الصفات بقوله:

يتـــسابقون إلى العلـــى والـــسؤددِ

المسابقة ههنا ليست مسابقةً على الأقدام، ولكنّها مسابقةٌ بالعلوم، مسابقةٌ بالحفظ، وبالدراسة، وبالفهم، مسابقةٌ بقراءتهم في الكتب المؤلّفة، وقراءتهم على العلماء، وسبقهم إلى الحلقات العلمية، ودراستهم للفوائد التي يستفيدونها، وتقييدهم للفوائد التي يحصلون عليها، هكذا تكون المسابقة إلى العلوم النافعة، مسابقةً علميةً يسبقون إليها غيرهم، وقد يدخل في ذلك ـ أيضاً ـ مسابقةٌ بالأعمال الصالحة، مسابقتهم بكثرة القراءة، وبكثرة الحفظ، مسابقتهم بالأعمال الصالحة، وقد وصف الله ـ تعالى ـ أهل الجنّة بأنهم يتسابقون، وبأنهم من السابقين، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ـ١١].

و وصفهم بأنهم من السابقين، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومدح هؤلاء الذين هم السابقون بالخيرات بإذن الله تعالى، وكذلك ـ أيضاً ـ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

فمن الخيرات تحصيل العلوم النافعة، حفظاً، ودراسةً، وتأمّلاً، وفقهاً، وفهماً، وإدراكاً، فهذه صفات هؤلاء الذين مدحهم المؤلّفُ في هذه الأبيات، يتسابقون إلى العلى والسؤدد.

العلى: المراتب العالية، وليست مراتبَ دنيويةً، ليست مراتبَ في المناصب، ولا مراتبَ في الوظائف الدنيوية، ولا مراتبَ في المكاسب العاجلة، ولكنّها المراتب الشريفة التي هي وراثة العلم، الذي هو ميراث الأنبياء، هذا تسابقهم إلى العلى وهو الميراث الحقيقي، الذي إذا حصلوا عليه حصلوا على علوٍّ المكانة عند الله تعالى، ومع ذلك فإنّ الله يرفعهم بهذا العلم، كما جاء في الصحيح: (**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**)[1].

وكذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فهكذا يتسابقون إلى العلى، الأماكن العليّة الرفيعة، ويتسابقون ـ أيضاً ـ إلى السؤدد، يعني: إلى مراتب السيادة، وأماكنها التي إذا وصلوا إليها أصبحوا سادةً، وقادةً، يحترمهم الخاص والعام، يعترف بفضلهم، ويعرف مكانتهم، فهذه صفة هؤلاء الذين تخيّلهم المؤلّف، وألقى الأسئلة عنهم، ثمّ تولّى الإجابة عنها، كما في الأبيات التي بعد هذا.

---

(١) مسلم (٨١٧).



قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا: بما عرف المكلّفُ ربَه فأجبتُ بالنظر السديد المرشدِ

الشرح:

هذا هو السؤال الأول، وهو إذا قالوا: بأيِّ شيءٍ عرفتَ ربك؟ كما عبّر بذلك الشيخ محمد بن عبدالوهّاب ـ رحمه الله ـ في ثلاثة الأصول، إذا قيل لك: بم عرفتَ ربك؟ أو بأيِّ شيءٍ عرفت ربك؟ الشيخ هناك قال: بآياته، وبمخلوقاته، ثمّ ذكر الآيات، ودليلها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وذكر المخلوقات، ودليلها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] إلى آخر الآيات، وذلك لأنه قد يلقي هذا السؤال بعض المتعنّتين الذين لم تطمئنّ قلوبهم بمعرفة ربهم، والذين يجحدون الله تعالى، وهم الذين يعرفون بالدهريين، ويعرفون بالشيوعيين ونحوهم، وهؤلاء لم يفكّروا، ولم يتذكّروا، ولم يتأمّلوا في هذا الوجود، وإلاّ لما شكّوا في معرفة الله تعالى، ومعرفة أنه ربّ العالمين، وأنه خالق الخلق أجمعين، وقد ذُكر أنّ العالم الكبير المشهور فخر الدين الرازي مشى مرّةً في الطريق، ومعه عددٌ كبيرٌ من تلاميذه يمشون وراءه، فتعجّبت عجوزٌ كبيرةٌ منه أنّ له شأنٌ وله قدر، وسألت عنه بعضهم، قالوا: هذا فخر الدين الرازي، الذي يحفظ ألف دليلٍ على وجود الله تعالى، فقالتْ: أفي الله شكٌّ؟.

هكذا الفطرة، امرأةٌ فطرتها تعرف أنّ الله ـ تعالى ـ ليس في وجوده شكٌّ، وقد تكلّم بعضهم عند هذه الآية في سورة إبراهيم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ومنهم فخر الدين الرازي عند هذه الآية، أورد الكثير من الأدلة العقلية على وجود الربِّ تعالى، وعلى أنه خالق الخلق، وأقام البراهين الواضحة على ذلك، مع أنّ هذا فطريٌّ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فالإنسان إذا أعمل فطرته وفكره فإنه يعترف بوجود الربِّ تعالى، وبأنه ربُّ العالمين، وخالق الخلق أجمعين، ولا يشكُّ في ذلك إذا تأمّل في نفسه، وقد تكلّم الكثير من العلماء على ذلك، ومنهم الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي سمّاه (التبيان في أقسام القرآن) لمّا تكلّم على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ـ٢١].

أطال الكلام على قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فذكر الكلام على كلِّ عضوٍ من أعضاء الإنسان، وأنّ خلقه فيه آياتٌ بينات، دالة على وجود الخالق، وعلى قدرته، وعلى أهليته للعبادة، بدأ من أعلى الإنسان، من رأسه، وشعر رأسه، ومخّه، وتراكيب الرأس، وكذلك الحواس، السمع، والبصر، والشمّ، والذوق، وكذلك العنق وما إلى ذلك، إلى أن وصل إلى القدمين وأصابع الرجلين، بكلامٍ واضح، وكذلك تكلّم على هذا المعنى في كتابه (مفتاح دار السعادة) وجاء بذلك بلفظ التأمّل، يقول ـ مثلاً ـ تأمّل في خلق السموات، وما فيها، وارتفاعها، وتأمّل في النجوم وسيرها بانتظام، ويتوسّع في ذلك، وتأمّل في النيّرين، الشمس والقمر، كلُّ واحدٍ يجعله في فصل، ثمّ ذكر ـ أيضاً ـ خلق الإنسان، ودعا إلى التفكّر والتأمّل في أعضاء الإنسان، عضواً عضواً، وهكذا المخلوقات، العلوية والسفلية، وما أشبهها، فكلّ ذلك ممّا يدلّ المعتبر والمتفكّر على معرفة الربِّ تعالى، وعلى أنه خالق الخلق، وأنه المستحقّ للعبادة وحده،

وكتب بعض المتأخرين كتاباً في الإنسان، وجعل عنوانه: (الإنسان ذلك العالمَ المجهول) جعله عالَماً، وتكلّم على أعضائه عضواً عضواً، وبيّن عجائب خلق الإنسان، وعجائب تركيبه، وأنّ كلّ أنملة، وكلّ عرقٍ، وكلّ عضوٍ دلالته واضحةٌ على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، وهذا الكتاب مطبوعٌ، وإن كنتُ لم أطّلع عليه، ذكره بعض المشايخ، سمعتُ أول من ذكره الشيخ عبدالرحمن بن محمّد الدوسري رحمه الله، وهو موجودٌ وفيه عجائب خلق الإنسان.

وأيضاً تكلّم على ذلك القزويني، وله كتابان، كتابٌ اسمه (عجائب المخلوقات، وبدائع المصنوعات) تكلّم فيه على هذه المخلوقات، التي يشاهدها الإنسان، ويذكر ما فيها من العجائب، وما فيها من الآيات الباهرة، وله ـ أيضاً ـ كتابٌ آخر في المناطق والبلاد، وعجائبها، يتكلّم على البلدة الفلانية وما فيها، وعلى الجبال وعلى الوهاد، وعلى الأودية، وعلى محتوياتها وعجائب ما تحتوي عليه، وقد بالغ في ذلك، كلّ هذا ممّا يستدلُّ به على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه ربّ العالمين، ولما وصل ابن كثيرٍ في التفسير عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة: ٢١].

تكلّم على هذه الآيات، وذكر هذه الدلالات:

الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ وأنّ فيها عبرةً وآية.

الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: وخلق آباءكم وأسلافكم.

والثالثة: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا...﴾ [البقرة: ٢٢] أي: دلالتها.

والرابعة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ...﴾ ودلالتها.

والخامسة: إنزال المطر من السماء، ودلالته: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ...﴾.

والسادسة: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فذكر أنّ في هذه الآيات دلالاتٌ عظيمةٌ على وجود الخالق، ثمّ نقل عن الأئمّة الأربعة دلالات أو عبراً، فنقل عن أبي حنيفة أنّ قوماً جاءوا إليه، وقالوا له: ما الدليل على وجود الربّ والخالق، أخبرنا بدليل؟ فسكتَ ثم قالوا: بأيٍّ شيءٍ تفكّر؟ فقال: أفكّر في خبرٍ بلغني تعجبتُ منه، بلغني: أنّ ههنا سفينةٌ كبيرةٌ تذهب بنفسها، وترسي في الساحل، ليس فيها أحدٌ يشتغل، وتحمّل نفسها من أنواع البضائع، ومن أنواع المبيعات، ثمّ تمشي وحدها مشياً سريعاً، ليس هناك أحدٌ يسوقها، ثمّ ترسي كلّ مرةٍ في بلد، ثمّ بنفسها تنزّل تلك البضائع كلّها، في ذلك البلد ثمّ تعود، وليس بها أحدٌ يدبّرها، فقالوا: هذا مستحيلٌ ولا يمكن؛ لأنها جماد، كيف هذه الجماد التي هي ألواحٌ ودسرٌ كيف تكون قائمةً بهذا العمل بدون أن يكون فيها من يسددها ويمشّيها! فعند ذلك قال: ويحكم، هذا الكون علويّه وسفليّه ليس له مدبّرٌ؟! من الذي يجري هذه الشمس، ومن الذي يجري هذه الأفلاك وهذه النجوم، ومن الذي يرسل هذه الرياح، ومن الذي ينزل هذا المطر، ومن الذي ينشئ هذه السحب، وأخذ يعدد عليهم، فعند ذلك اعترفوا، وتابوا وأسلموا على يديه، فكان هذا المثال حجّةً قويةً من أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ.

كذلك ذكر عن بعض العرب أنه سئل عن ذلك فقال: إنّ البعرة لتدلّ على البعير، وإنّ الأثر ليدلّ على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، أفلا تدلّ على السميع البصير، جعل ذلك دلالة عقليةً، كذلك نقل عن الإمام أحمد أو الشافعي أنه تعجّب، وقال: ههنا نباتٌ من النباتات يأكله الإنسان ثمّ يخرج قذراً، يأكله الظباء ويخرج مسكاً طيباً، تأكله النحل ثمّ يخرج عسلاً، وهو شيءٌ واحدٌ، أفلا يكون ذلك دليلاً على قدرة الخالق؟.

وعلى وجود الخالق؟ وأنشد ابن كثيرٍ أبياتاً لابن المعتزّ، يقول:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ
ولله في كلّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهدُ

بمعنى أنّ الذي يتأمّل هذه المخلوقات يأخذ من كلّ شيءٍ آية وعبرة، وفي كلّ شيءٍ آيةٌ تدلُّ على أنّ الله هو الواحد، وهو الخالق لجميع المخلوقات.

وكذلك أنشد الشيخ عبد الرحمن بن حسن في كتابه (فتح المجيد) أبياتاً، يقول فيها الناظم:

تأمّل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لُجينٍ شاخصاتٌ بأحداقٍ هي الذهب السبيكُ
على قضب الزبرجد شاهداتٌ بأنّ الله ليس له شريكُ

هذه الأدلة تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وذكروا: أنه لمّا نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال المشركون: ما الدليل على أنه إلهٌ واحد؟.

فنزلت الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

اشتملت هذه الآية على عشر دلالات، آيات وعجائبُ عظيمةٌ، دالة على وجود الخالق، وعلى قدرته على كلّ شيء.

يقول الناظم:

قالوا بما عرف المكلّف ربه؟

المكلّف المخلوق الإنسان الذي قد كلّف، فإنه لا يكلّف إلاّ إذا عقل، إذا كان عاقلاً، عارفاً، فبأيّ شيءٍ عرف ربه؟ فيقول ـ رحمه الله ـ :

فأجبتُ بالنظر السديد المرشدِ

أي: بالنظر في هذه المخلوقات، لكن نظرٌ مع تعقّل، نظرٌ مع عقلٍ، لا نظرٌ مع غفلة، وقد أرشد الله ـ تعالى ـ عباده إلى هذا النظر في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ـ٢٠].

فإنّ النظر ههنا ليس هو مجرّد النظر بالعينين، بل لابدّ أن يكون نظراً بعقلٍ وتأمّل، وتفكر، كذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ [ق: ٦]، إلى آخر الآيات، وهكذا قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ.. ﴾ [يوسف: ١٠٩]، في آياتٍ كثيرة، وقد اشتملت الكثير من السور على لفت الأنظار إلى آيات الله تعالى، ففي سورة القيامة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ـ٣٨]، إلى آخر السورة، دلالة واضحة.

وفي السورة التي بعدها: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ١ـ٢]. إلى آخر الآيات.

وفي السورة التي بعدها: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] إلى آخر الآيات.

وفي السورة التي بعدها: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦-٧]. إلى آخر الآيات.

وفي السورة التي بعدها: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨] إلى آخر الآيات.

وفي السورة التي بعدها: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبسى: ٢٤-٢٥] إلى آخر الآيات.

سورٌ متتابعةٌ في كلِّ سورةٍ دلالة واضحةٌ على وجود الخالق، وعلى قدرته، وإذا تفكّر في هذه المخلوقات وجد أنها منتظمة، ليس هناك شيءٌ في خلقه خلل، بدأ من الإنسان، وامتداداً إلى صغار المخلوقات، كالذرّة، والبعوضة، ونحوها؛ فإنّ في خلق الجميع آياتٍ، وعبراً يتذكّر بها العاقل المتأمّل لما في هذا الكون، ويعرف بذلك ربه تعالى، الذي ربّاه، والذي خلقه لعبادته، ويستنبط ذلك من كلِّ هذه الموجودات التي يشاهدها، والتي يراها، فيرى فيها عبرةً، وموعظةً، ويرى فيها دلالة على قدرة: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢-٤]، والذي أوجد هذا الكون بجميع ما فيه من هذه الكائنات، ويصدّق بعد ذلك بقدرته، وكذلك بأسمائه وصفاته، وكذلك بمخلوقاته العلوية والسفلية، وبذلك يطمئنّ إلى ما في هذا الكون من هذه المخلوقات والموجودات.



قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا فهل ربُ الخلائق واحدٌ قلتُ: الكمال لربنا المتفرّدِ

قالوا فهل لله عندك مشْبهٌ قلتُ: المشبِّه في الجحيم الموصدِ

الشرح:

يقول الناظم: رحمه الله:

قالوا فهل رب الخلائق واحدٌ قلتُ: الكمال لربنا المتفرّدِ

الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحد كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤]، ونحو ذلك من الآيات، فنقول إن الله واحدٌ في ربوبيته، واحدٌ في ألوهيته، واحدٌ في أسمائه وصفاته، ليس له شريك، ولهذا في الذكر المشهور (لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له) فكلمة (لا إله إلاّ الله) تقتضي توحيد الله، أي: أنه الإله الواحد، وقول: (وحده) تقتضي تأكيد التفرّد لله وحده، وتقتضي تأكيد الإثبات، وقوله (لا شريك له) تأكيدٌ للنفي، فإن لا إله إلاّ الله تشتمل على نفيٍ وإثبات، فالنفي: ينفي جميع الآلهه، وجميع المعبودات، والإثبات: يثبت أن العبادة كلها لله وحده، ليس له شريك، فهكذا اللهـ تعالى ـ ربُّ الخلائق، وهو واحد، فكما أنه المنفرد بخلق جميع المخلوقات، المتفرّد بإيجاد جميع الموجودات، فإنه كذلك ربها، فهو واحدٌ في ربوبيته، والربُّ: هو المالك، رب العالمين، وربُّ الخلائق، أي: مالكها، والمتصرفُ فيها، فهو مالك الملك، وهو ربُّ العالمين كلهم، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، كذلك ـ أيضاً ـ له الكمال، (**الكمال لربنا المتفرّدِ**) له

الكمال وحده، فهو المتفرّد، الذي تفرّد عن الشريك، تفرّد عن أن يكون معه خالقٌ، تفرّد عن أن يكون معه مدبّر، تفرّد عن أن يكون له شبيهٌ في أسمائه، أو في صفاته، فهذا هو ربُّ العالمين، الربُّ: يطلق ـ أيضاً ـ على المربّي، فنقول: ربنا الله، الذي ربّانا، وربى جميع العالمين بنعمته، فكما أنه خالق الخلق فإنه كذلك مربيهم، وكما أنه مالكهم، فكذلك هو الذي ربّاهم، أنعم عليهم، وأسبغ عليهم نعمه، ظاهرةً وباطنة، وخولهم، وأعطاهم من كلِ ما سألوه، وأقام على ذلك الأدلة والبراهين، وأمرهم أن يعتبروا ويتفكروا، في هذه الموجودات وحدها، ليستدلوا بذلك على أنه ربنا المتفرّد، وأنّ له الكمال وحده، موصوفٌ بصفات الكمال، إذا نظرنا وتدبرنا في خلق الله وجدنا أنّ كلّه يدلّ على كمال الله وحده، ويدلّ على أنّ كلّ مخلوقٍ فإنه محتاجٌ إليه، محتاجٌ إلى خلقه، محتاجٌ إلى تدبيره، محتاجٌ إلى عطائه ومنّه، وتفضّله عليه، فله الكمال في كلِّ الحالات، (**الكمال لربنا المتفرّد**) الكمال في تصرفاته، فلا يتصرّف في شيءٍ إلاّ وتصرّفه في غاية المناسبة، ولا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يترك شيئاً سدى، كذلك الكمال لله في أسمائه، فأسماؤه كلّها حسنى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وله الصفات العلى، كذلك ـ أيضاً ـ له الكمال في صفاته، فصفاته صفات كمال، صفاتٌ تليق به، كاملة من كلّ الوجوه، وهو الربّ المتفرّد بالبقاء وحده، فهو الحيُّ الذي لا يموت، وكلّ المخلوقات يموتون، الجنّ والإنس، والملائكة، و الحيوانات، كلّها كتب الله عليها الفناء والموت، ولا يبقى إلاّ الله تعالى، فله الكمال من كلِّ الجهات وفي كلّ الحالات.

كذلك قولـه:

قالـــوا فهـــل لله عـــندك مـــشبهٌ   قلـتُ: المشبّه في الجحيم الموصدِ

هذا سؤال، أي: فهل تُشبّه الله تعالى بشيء، وهل أحدٌ من الموجودات يُشبه الله، في شيءٍ من خصائصه، هل لله مشبهٌ يشبهه في خلقه، وفي ذاته، وفي صفاته، الجواب: ننزه ربنا عن أن يكون لـه شبيه، فإنّ التشبيه يعتبرُ إثباتَ مشبهٍ لله ـ تعالى ـ في شيءٍ من خصائصه، فيكون هذا إثبات نظيرٍ لله، أو إثبات شريكٍ لـه، أو ما أشبه ذلك، وهذا كله مما ينزه عنه الربُّ تعالى، وذلك يعمّ ـ أيضاًـ التشبيه بصفاته، فإذا أثبتنا لله الذات فإننا نثبت لـه الصفات، التي أثبتها لنفسه، وإذا أثبتناها فإننا ننزه الله عن أن يكون لـه شبيه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ويصرّح أهل السنة بنفي التشبيه؛ وذلك لأنّ المعطّلة من المعتزلة ونحوهم يرمون أهل الإثبات بأنهم مشبّهة، ودائماً كل من أثبت صفةً من الصفات ذاتية أو فعلية فإنهم يقولون هذا مشبّه، ويجعلون إثبات الصفات تشبيها، فأهل السنة يصرّحون بنفي التشبيه، ونفي التمثيل، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فإنها نفيٌ وإثبات، نفيٌ للشبيه، وإثباتٌ للسمع والبصر، بعض آيةٍ من القرآن أثبت الله فيها لنفسه السمع والبصر، ونفى الشبيه، أي: ليس مثل الله شبيه، بل إنه المتفرّد بجميع خصائصه، وجميع صفاته، فهكذا يستدلون على نفي الشبيه، بهذه الآية، ومثلها قول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: من يساميه، ومن يستحق مثل اسمه، ومن يشبهه حتى يستحق صفةً من صفاته، وكذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا...﴾ [البقرة: ٢٢].

أي: أشباهاً وأمثالاً، ونظراء، بل نزهوه عن ذلك كلّه، وأثبتوا له صفة الكمال والتفرّد في جميع صفاته، وكذلك قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

الكفو: هو الشبيه، والنظير، والمثيل، والربُّ - تعالى - منزّهٌ عن ذلك كلّه، فلا شبيه له، ولا كفو له، ولا ندَّ له، ولا يشبّه بخلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك قال الله - تعالى -: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النحل: ٧٤].

أي: لا تجعلوا له مثيلاً، ولا تضربوا الأمثال بأنفسكم، أو بالمخلوقات، أو ما أشبهها، هكذا أخبر - تعالى - بأن له صفات الكمال، وينزّه عن صفات النقص، ومن ذلك التشبيه بالمخلوقات؛ لأنّ المخلوقات ناقصة، ويأتي عليها العدم، وتعترضها الآفات، وكلّ مخلوقٍ يعتريه آفاتٌ ونقائصُ وأمراضٌ، ونحو ذلك، فالله منزّهٌ عن ذلك كلّه، ليثبتَ له التفرّد بالكمال كلّه، وإذا أثبتنا الصفات فإننا ننزّه الله - تعالى - عن مشابهة أحدٍ في صفاته، فنقول: إنّ الله موصوفٌ بأنه سميعٌ، لا كسمع المخلوق؛ لأنّ سمع المخلوق ناقصٌ، يعتريه التغير، حيث يعتريه ذهاب السمع، وكذلك نقصه، ولا يسمع إلاّ القريب منه، وأما الربّ - تعالى - فإنه موصوفٌ بكمال السمع، لا يشغله سمعٌ عن سمع، وسع سمعه جميع الأصوات، ولا تشتبه عليه اللُّغات، ولا تغلطه كثرة المسائل، مع اختلاف اللُّغات، وتفنن المسئولات، فيسمع صوت جميع الخلق في لحظةٍ واحدة، ويسمع جميع اللُّغات ويعرفها، بدون أن يشغله سمعٌ عن

سمع، وإذا قيل إنّ الله ـ تعالى ـ بصير فقد أثبت لنفسه ـ تعالى ـ أنه بصير، بمعنى أنه يرى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

فالله ـ سبحانه ـ بصيرٌ ويرى ولا يحجبه شيءٌ، يرى دبيب النملة السوداء في اللّيلة الظلماء، على الصخرة السوداء، ونحو ذلك، فلا يحجبُ بصره شيء، لا يستر بصره شيءٌ من الحجُب، بل يرى كلّ شيء، ويعلم أين هو، وذلك من صفات الكمال لله ـ تعالى ـ.

وإذا أثبتنا صفة العين فإننا ننزّهها ـ أيضاً ـ عن مشابهة شيء من المخلوقات.

فنقول: إنّ الله ـ تعالى ـ أثبت ذلك لنفسه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩]، فأثبت الجمع لمّا جمع الضمير بقوله: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، أي: أمام أعيننا، وبقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وأثبت لنفسه هذا الوصف، وإذا أثبتناه فإننا ننزّه عن أن يكون كعين المخلوق، أو كبصر المخلوق، والأصل تنزيه الله عن جميع خصائص المخلوق؛ لنقصها، وضعفها، وإثبات صفات الكمال لله عزّ وجل، فإنه أثبتها لنفسه، ولا نغترّ بقول من يرمينا بأننا مشبّهة.

فإن من المعتزلة الزمخشري العالم المشهور، وقد بالغ في نفي الصفات، ومن جملة ما نفاه: نفي رؤية الله في الجنّة، حيث إنّ أهل السنّة يقولون: إنّ الله ـ تعالى ـ يُرى كما يشاء، يرى بلا كيف، فيقول الزمخشري:

قد شبّهوه بخلقه فتخوفوا شنع الورى فتستّروا بالبلكفه

يريد: إذا قلنا إنّ الله ـ تعالى ـ يرى بلا كيف، وإنّ له سمعاً بلا كيف، وإنه ينزل بلا كيف، وإنه استوى على العرش بلا كيف، وإنه له سمعٌ وبصرٌ بلا كيف، فجعل هذه هي البلكفه، وجعل إثبات هذه الصفات تشبيهاً للخالق بالمخلوق، يعني: أنّ كلّ من أثبت هذه الصفات التي يثبتها الأشاعرة، ويثبتها أهل السنّة، ويثبت أهل السنّة بقية الصفات، فيقول: إنّ هذا هو التشبيه، أنكم شبهتموه، وحاشا أهل السنّة أن يشبّهوا الخالق بشيءٍ من خصائص المخلوقات، وحاشا أن يشبّهوا شيئاً من صفاته بصفات المخلوق؛ ولذلك يقول الناظم:

قلتُ: المشبِّه في الجحيم الموصدِ

الذي يشبّه الله بخلقه كأنه يعبد غير الله، أو يثبت لله شريكاً سواه؛ ولذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته:

لسنا نشبّه ربنا بصفاتنا إنّ المشبّه عابد الأوثانِ

كلاّ ولا نخليه من أوصافه إنّ المعطّل عابد البهتانِ

فأهل السنّة لا يشبّهون ولا يعطّلون، التعطيل: نفي الصفات، فالذي يعطّل يعبد عدماً، عابد البهتان، ولا يشبّهون، فالذي يشبّه يعبد مخلوقاً، ونقل عن بعض السلف قوله: «المشبّه يعبد صنماً، والمعطّل يعبد عدماً، والموحّد يعبد إلهاً واحداً صمداً فرداً»[1].

(١) انظر: تفصيل ذلك في شرح شيخنا عبدالله بن جبرين ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ على العقيدة الطحاوية.

هذا وصف لأهل السنّة أنهم ـ وإن أثبتوا هذه الصفات ـ فإنهم يعتقدون أنها لا تشبه صفات المخلوقين.

ونقول ـ أيضاً ـ لمن ينفي شيئاً من الصفات ـ كالأشاعرة ـ: إنّ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فإثباتنا للصفات إثبات وجود، لا إثبات تشبيه، ولا إثبات تمثيل، كما نقل ذلك عن السلف، كالخطّابي وغيره، إثبات أنها موجودةٌ، وأنها حقيقية، ولكن لا نقول إنها تشبه صفات المخلوقين، فالمشبِّه يعبد صنماً، وجميع ما نثبته من الصفات نقول: إنه كما يليق بالله، ونقول: إنه ليس كصفات المخلوقين، بل كما أننا نثبت الذات لله ـ تعالى ـ حقيقةً فكذلك نثبت الصفات لله حقيقة، وكما أننا نقول: إنّ لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فكذلك نقول: إنّ لله صفات لا تشبه الصفات، وأنّ المشبِّه ـ سواءً في الذات أو في الصفات ـ يعتبر كافراً يستحقُّ العذاب، والعياذ بالله؛ فلذلك قال:

المــــشبِّه في الجحـــــيم الموصــــد

يعني: أنه يستحقّ النار، التي قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨].

يعني: النار، إنها عليهم مؤصدة، في عمدٍ ممدّدة، فهذا تحذيرٌ من هذا الاعتقاد، وتنزيهٌ لأهل السنّة عما يرميهم به المعطّلة من أنهم مشبّهة، فنحن نبرأ إلى الله من التشبيه، مع أننا نثبت الصفات التي أثبتها الله لنفسه، لا نتجاوز ما أثبت لنفسه في الكتاب والسنّة، وبذلك يسلم أهل السنّة من الاعتراض عليهم بأنهم مشبِّهة، أو معطِّلةٌ، أو نحو ذلك.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالـوا: فهـل تـصف الإلـه أبـنْ لـنا قلت: الصفات لذي الجلال السرمدِ

قالـوا: فهـل تلـك الـصفات قديمـةٌ كالـذّات: قلـتُ: كـذاك لم تـتجدّدِ

الشرح:

قولـه:

قالـوا: فهـل تـصف الإلـه أبـنْ لـنا قلت: الصفات لذي الجلال السرمديِ

أثـبت أنّ لله ـ تعـالى ـ صـفات، وأثـبت أنـه ذو الجـلال، ولا شـكّ أنّ الله ـ تعـالى ـ قـد أثبتَ لنفسه الصفات، وأثبتها لـه نبيّه الكريم ﷺ وقد قسّم العلماء الصفاتِ إلى قسمين:

صفاتٍ فعلية، وصفاتٍ ذاتية، ويريدون بالصفات الذاتية: الصفات التابعة لذاته، الثابتة التي لا تفقد في حال، مثل صفة السمع، فإنه موصوفٌ به دائماً، وصفة البصر فإنه متصفٌ بأنه دائماً يبصر، وصفة الرؤية أنه يرى عباده، لقولـه ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨].

وكـذلك صـفة الكـلام لا تفقـد بحـال، وصـفة العلـم، موصـوفٌ بـالعلم دائمـاً وسرمداً، وصـفة اليدين، كما أثبتهما لنفسه، وصفة الوجه، كما أثبته لنفسه، وكـذلك في الأحاديـث، أثـبت الـنبيُّ ﷺ صفة القدم، أو الرجل ـ في روايةٍ ـ لربه كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **(تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبِّر والمتجبِّرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وَسَقَطُهُم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من**

أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذاب أُعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما مِلْؤُها، فأما النار: فلا تمتلئُ حتى يضَعَ رجله فتقول: قَطْ قَطْ قَطْ، فهناك تمتلئ ويُزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة: فإن الله عز وجل ينشئُ لها خَلْقاً)[1]، وأثبت سبحات الوجه، كما في حديث: أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لـه أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[2]. فهذه صفاتٌ ذاتية، يلزم المسلم أن يثبتها، وأن يعتقد ثبوتها؛ فإنّ أدلّتها واضحةٌ في القرآن، وكذلك في السنّة النبوية، والذين يجحدونها في الحقيقة كأنهم يتنقّصون الله.

أولاً: يكذبون بصفاتٍ أثبتها لنفسه، وأثبتها له نبيّه ﷺ.

وثانياً: يلزمهم أن يثبتوا أضدادها، فإنّ من نفى صفة السمع لزمه إثبات ضدّه، الذي هو الصمم، ومن أثبت هذه الصفة ـ صفة السمع ـ لزمه أن ينفيَ ضدّها، ومن نفى صفة البصر لزمه إثبات العمى، نعوذ بالله، ومن نفى صفة العلم لزمه إثبات الجهل، ومن نفى صفة القدرة لزمه إثبات العجز، وما أشبه ذلك، وقد تظاهرت المعتزلة بالمبالغة في نفي هذه الصفات، وصاروا لا يصفون الله إلاّ بالصفات السلبيّة، دائماً يقولون: إنّ الله ليس بذي سمعٍ، ولا بصرٍ، ولا علمٍ، ولا قدرةٍ، وليس هو فوق العباد، ولا تحتَ، ولا يمينَ ولا شمال.

---

(١) البخاري (٤٨٤٩، ٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) مسلم (١٧٩).

وهم يعتمدون الصفات السلبية، صفات النفي، فصاروا بذلك معطِّلة، ولماّ أنّ الأشعريَّة أثبتوا سبع صفاتٍ لم يثبتوها بالسمع، وإنما أثبتوها بالعقل، فقالوا: إنّ الأفعال الحادثة دالة على القدرة، فنثبت القدرة إثباتاً عقليّاً، والإحكام دالٌّ على العلم، فنثبت العلم بالعقل، والتخصيص لهذا دون هذا دل على الإرادة، وإذا أثبتنا العلم والقدرة والإرادة لزم إثبات صفة الحياة، وإذا أثبتنا الحياة فلابدّ أنّ الحيَّ إمّا أن يكون سميعاً أو أصمَّ، والسمع أكمل، فنثبت السمع، والحيُّ إمّا أن يكون بصيراً أو أعمى، والبصر أكمل، فنثبت البصر، والحيُّ إمّا أن يكون متكلّماً أو أخرس، والكلام أكمل، فأثبتنا الكلام.

فهم إنّما يثبتون هذه السبع الصفات، وينفون ما عداها، وقد سمّاهم المعتزلة صفاتية، لماّ أنهم خالفوهم في هذا النفي، فصاروا يثبتون هذه السبع؛ فلذلك سموهم صفاتيّة، ولماّ أنّ أهل السنّة والجماعة أثبتوا لله كلَّ الصفات التي أثبتها الله - تعالى - لنفسه، فأثبتوا له صفة المحبّة بأدلّتها، وصفة الغضب والرضا وأدلّتها كثيرة.

وكذلك صفة الفرح وصفة الضحك، وصفة العجب ونحوها؛ فإنّ أدلّتها كثيرة؛ فلأجل ذلك لم يروا بدّاً من إثباتها، فعند ذلك سمّاهم المعتزلة مشبّهة، وادّعوا أنّ كلَّ صفةٍ توجد في المخلوق فإثباتها تشبيه، وهم يردّدون دائماً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ويسكتون عن آخرها: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فيقال لهم: إنّ هذا أخذٌ ببعض الآية دون بعض، فالآية فيها إثبات السمع والبصر، وأنتم تنفون ذلك، فإمّا أن تأخذوا بالآية كلّها، وإمّا أن تتركوها

كلّها، ولا يجوز لكم أن تأخذوا جزءً منها، ونحن نوافق على أنّ الله ليس كمثله شيءٌ، وذلك يعمّ التشبيه في ذاته، وفي صفاته، ولكن نقول لكم أيّها المعتزلة: ألستم تقرّون أنّ لله ـ تعالى ـ ذاتاً؟ فيقولون: نعم، فنقول: هل هي مثل ذوات المخلوقين؟ فيقولون: بل ذاتٌ تليق به، فنقول: أثبتوا الصفات، وقولوا: إنها صفاتٌ تليق به، ولا حاجةَ إلى أنكم تتكلّفون وتنفونها.

ونقول للأشاعرة: أنتم أثبتم سبع صفات، فهذه الصفات السبع هل هي كصفاتنا؟ فإذا قالوا: لا، بل صفاتٌ تليق به، قلنا: أثبتوا بقيّة الصفات وقولوا: صفاتٌ تليق به، نقول لكم: أنتم تثبتون صفة الإرادة، وليست الإرادة التي نعرفها، وهي ميل النفس إلى المراد وإيثاره، هذا حقيقة الإرادة، فإذا قلتم: إنّ الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، وقلتم: لا نثبت هذا الغضب لأنه لا يليق بالله، قلنا: فلا تثبتوا صفة الإرادة؛ لأنها ميل النفس إلى المراد، فإذا قلتم: هذه إرادة المخلوق، قلنا: وهذا غضب المخلوق، والله ـ تعالى ـ صفاته تليق به، فنحن نصف الإله، كما يقول أبو الخطّاب:

قالوا: فهل تصف الإله أبنْ لنا

أي: بيّن لنا:

قلت: الصفات لذي الجلال السرمدي

الصفات الثابتة كلّها التي أثبتها لنفسه نثبتها لذي الجلال السرمدي.

ثم قال:

قالوا: فهل تلك الصفات قديمةٌ كالذّات؟ قلتُ: كذاك لم تتجدّدِ

الذين ينفون الصفات يقولون: إنه يلزم منه تعدّد القدماء؛ لأنهم لا يثبتون قديماً إلاّ الذات، التي لم تسبق بعدم، وإذا جاءهم من يثبت الصفات قالوا: إذاً

تكون الصفات حادثةً أو قديمة، فنقول: بل إنها قديمةٌ كالذات، فيقولون: إذاً لا يكون القِدمُ لله وحده، يلزمكم أن تقولوا: الله قديم، والسمع قديم، والبصر قديم، والكلام قديم، والعلم قديم، ونحو ذلك، فيكون القدماء كثيراً، ليس واحداً، هذه شبهتهم.

فنقول: الصفات مع الذات قديمةٌ لم تتجدّد، أيّاً كانت تلك الصفات، فعليّةً أو ذاتيّةً، فإنها جميعاً قديمة، لم يتجدّد منها شيءٌ، فقِدَمُها بقِدَمِ الذات، وهي تابعةٌ للذات، والله ـ تعالى ـ قديمٌ بعلمه، قديمٌ بسمعه وبصره، قديمٌ بقدرته وإرادته، قديمٌ بكلامه، قديمٌ بحياته، قديمٌ بإرادته، وبحبّه وبغضه، وبكراهيته، وغضبه ورضاه، قديمٌ بذلك، هذه الصفات لم تتجدّدْ.

فإنّ الصفات تتبع الذات، والإنسان لا يقال: إنّ له صفاتٍ متجدّدةً وحادثةً، وبالأخصّ الصفات الكمالية، فأنت إذا جاءك زيدٌ، فإنك تقول: جاءنا زيدٌ، ولا حاجة إلى أن تفصّل، لا تقول: جاءنا زيدٌ، ويداه، ورجلاه، ورأسه، ولسانه، وشفتاه، وعيناه، وأذناه؛ لأنه شيءٌ واحدٌ، ذاتٌ واحدة، بما فيها الصفات.

فلا حاجة إلى أن نقول: الله قديم، وسمعه قديم، وبصره قديم، الله ـ تعالى ـ قديمٌ بصفاته، هذا معتقد أهل السنّة، ولا حاجة إلى أن يفصّلوا التفصيل الذي يلزمهم به المعتزلة ونحوهم، من تعدد القدماء، وأنه يلزم من إثبات الصفات أنّ القدماء كثيرون، ليس واحداً.

نقول بعد ذلك: إنّ هذه الصفات صفات كمال، وإنّ نفيها يلزم منه النقص، ويلزم منه العيب، ولا نوافقهم على أنّ إثبات الضدِّ إنما يكون لما هو قابل؛ فإنّ

هذا اصطلاحٌ عندهم، حيث يقولون: إنّ إثبات الضدِّ لا يلزم إلاّ ما كان قابلاً، فإنهم يقولون ـ مثلاً ـ الجبل والصخرة والجدار ليست قابلة للصفات، لا المثبتة ولا المنفيّة، فلا يقولون: إنّ الجدار ميتٌ؛ لأنه لا يقبل الحياة، نقول: بلى، إنه شبيهٌ بالميت، فكلُّ شيءٍ ليس فيه حركةٌ اختياريةٌ فإنه ميتٌ؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في أصنام المشركين: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١].

مع أنّ بعضها من حجارةٍ، وبعضها من خشبٍ، ونحو ذلك، فإذا كان كذلك عُلمَ أننا إذا أثبتنا الصفات لم يلزم ما ألزمونا به، من أنّ نفيها لا يكون إلاّ لمن كان قابلاً، يعني: إثبات الضدِّ.

وعلى كلِّ حالٍ تبيّن عند أهل السنّة أنّ الصفات ثابتةٌ بالسمع، الذي هو الأدلة الكثيرة الواضحة، دون اختلاف، وثابتةٌ ـ أيضاً ـ بالعقل، الذي أثبتها به العقلاء، ولا التفاتَ إلى شبهاتهم، ولا قولهم: إنّ هذا تشبيهٌ منكم لله ـ تعالى ـ بالمخلوقات، فتبيّن أنّ قول أهل السنّة ـ للإثبات ـ أسلم الأقوال وأبعدها عن التناقض والضلال.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ :

قالوا فأنت تراه جسماً مثلنا ... قلتُ: المجسّم عندنا كالملحدِ
قالوا: فهل هو في الأماكن كلّها ... فأجبتُ بل في العلو مذهب أحمدِ
قالوا فتزعم أنْ على العرش استوى ... قلتُ: الصواب كذاك أخبر سيدي
قالوا فما معنى استواه أبنْ لنا ... فأجبتهم هذا سؤال المعتدي

الشرح:

يقول الناظم ـ رحمه الله ـ:

قالوا فأنت تراه جسماً مثلنا ... قلتُ: المجسّم عندنا كالملحدِ

هكذا صرّح الناظم ـ رحمه الله ـ بلفظ الجسم أو بلفظ التجسيم، الجسم: يراد به الجرم والجسد المحسوس، وقد اشتهر عند الأشاعرة ونحوهم نفي التجسيم، والمبالغة في إنكار أن يوصف الله بأنه جسم، وصاروا يلقّبون كل من أثبت الصفات بأنه مجسّم، وأن هذا تجسيم؛ ولأن لفظ الجسم لم يرد في الكتاب والسنة، إثباتاً ولا نفياً، لذلك أنكره المحققون كشيخ الإسلام ابن تيمية، أنكروا إثباته، وأنكروا نفيه، يكرر الإنكار شيخ الإسلام ويقول: من قال أن الله جسم فهو مبتدع، ومن قال إن الله ليس بجسم فهو مبتدع، وكان المعطّلة لمّا أخذ شيخ الإسلام يقرر إثبات الصفات، أن الله تعالى له سمعٌ، وأثبت له الوجه، وأثبت له اليدين، وأثبت له العين، فقالوا: إنّ هذا جسم، فامتنع من إثبات هذا الجسم، عند ذلك قال له بعضهم: إذا كان كذلك فيمكنك أن تقول: إن الله جسم لا كالجسام، كما إذا قلت إن لله وجهٌ لا كالوجوه، ويدٌ لا كالأيدي، فقل جسمٌ لا كالأجسام، فقال: حاشا وكلاّ؛ لأن لفظ الجسم ما جاء عن

النبي ﷺ، ولا عن السلف، ما ذكروه نفياً، ولا ذكروه إثباتاً، فلا يجوز أن نثبت شيئاً بلا دليل، ولفظ الجسم ورد في الإنسان، في قول الله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فهذا مدحٌ للإنسان الذي عنده بسطة في الجسم، وأن ذلك سببٌ لاحترامه ومكانته، والمظهر الثاني: يظهر أنه ذم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وعلى كل حالٍ فإنّ لفظ الجسم لا يجوز إثباته، وقول الناظم:

قلت: المجسّم عندنا كالملحد

صحيح لأننا ننفي ما يرموننا به، ويسموننا مجسّمة، فنقول: لسنا مجسّمة، ولو أثبتنا الصفات، فإن إثباتنا لهذه الصفات الذاتية كالسمع، والبصر، والوجه، واليد، ونحو ذلك لا يلزم أنْ نكون مجسّمة، ونحن ننفي عن الله ـ تعالى ـ صفات النقص، فكل صفةٍ تستلزم نقصاً فإننا ننكرها، وننفيها عن الله تعالى، وكل صفةٍ فيها كمال جاء دليلها فإننا نثبتها كما يشاء الله، فلذلك من أثبت شيئاً بلا دليل رددنا عليه، ومن ذلك إثبات الجسم، ومن ألزم أهل السنة بشيء غير لازم فإن كلامه مردودٌ عليه، فلا يلزم أن من أثبت الصفات التي أثبتها الله أن يكون مجسماً، ولا أن يُلزم بما لم يلتزمه، فالله ـ تعالى ـ له ذات، ويعترفُ جميع المسلمين بأنّ له ذات، ثم مع ذلك يقولون، ذات الله لا تشبه الذوات، وحينئذٍ نقول لهم أثبتوا له صفات وقولوا لا كالصفات، أثبتوا الصفات وانفوا عنها مشابهة صفات المخلوقين، وبذلك تسْلمون من الرد، ومن الطعن عليكم بالتناقض؛ لأنّ القول في الصفات كالقول في الذات، وقد قرر ذلك شيخ الإسلام كما في الحموية، وفي التدمرية، ونحوها، ونقل عن الخطابي

أنه قال: إن إثبات الصفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف وتمثيل، وهكذا - أيضاً - إثبات الذات لله - تعالى - إثبات وجود لا إثبات تكييف ولا تحديدٍ، بل اللهـ تعالى - أثبتها، وعرفنا أنها صفات كمال فنثبتها كما أثبتها الله، ونحن لا نصف الله إلاّ بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، وحيث إنه أثبتها صفات فعل، وصفات ذات، على وجه التمدّح، فإننا لا نعبأ بقول من رمانا بأننا مجسّمة، ونبرأ إلى الله من التجسيم، الذي يرموننا به، كما ذكر ذلك الناظم بقوله:

قلتُ: المجسّم عند كالملحدِ

يعني: الذي يثبتُ شيئاً ما أثبته الله، فيقول إن الله جسم، وأن له جسم، يعتبر كالملحد، هكذا مقتضى ما في هذه النسخة.

وهذا دليلٌ على أن المجسّم الذي يثبتُ هذه الصفة ينكر عليه، كما ينكر - أيضاً - على الذين ينفون ما ليس له دليل، فينكر على من أثبت الجسم، وينكر على من نفى الجسم، ويقال لا تصفون الله إلا بشيء قد ورد دليله في الكتاب والسنة، هذا معنى نفي الجسم، ونفي إثباته، ونفي نفيه.

ثم قال الناظم رحمه الله.

قالوا فهل هو في الأماكن كلّها فأجبتُ بل في العلو مذهب أحمدِ

ذكر هذا البيت الشيخ ابن مانع - رحمه الله - في رسالته التي في التوحيد، واسمها (القول السديد) ولكن كأنه تصرّف فيه، أو كأنّ بعض النسّاخ تصرفوا فيه، ولفظه هناك.

فهل هو في الأماكن كلها قلت: الأماكن لا تحيط بسيدي

من عقيدة المعتزلة، والفلاسفة، والمعطّلة، أن يقولوا إن الله في كل مكان، وأن الأماكن بالنسبةِ إلى الله - تعالى - سواء، وهذا إنكارٌ لما ذكره الله من إثبات كون الله - تعالى - في السماء، وأدلة ذلك ظاهرة، فإن الذين قالوا إن الله في كل مكان ما نزّهوا الله، ولا احترموا صفاته، جعلوه في كل الأماكن، فلم ينزّهوه عن الأماكن المستقذرة، عن الحشوش، وعن الأقذار، وعن الأكدار، وعن الزبالات والنفايات وما أشبهها، فجعلوا الله في الأماكن كلّها، تعالى الله عن قولهم، وهذا يؤدّي إلى التعطيل، ويؤدّي إلى أنهم لا يقرّون لله - تعالى - بصفة، ولا يعترفون بأن الله موصوفٌ بصفات الكمال، ومنزّهٌ عن صفات النقائص، فإنّ من صفات الكمال إثبات صفة العلوّ لله تعالى، وقد أثبت أهل السنّة صفة العلوّ بجميع أنواعها، وهي ثلاثة، علوّ الذات، وعلوّ القدر، وعلوّ القهر، والكلام على إنكار علوّ الذات هو الذي أنكروه، وخيّل إليهم أنه إذا كان في العلوّ كان ذلك تنقّصاً، وكان عيباً، أو يدّعون أنه سببٌ لاعتقاد أنّ الله تحصره الأماكن، وأنّ الله محصورٌ في جهةٍ من الجهات، أو نحو ذلك.

وهذا معنى النسخة الأخرى:

قلت الأماكن لا تحيط بسيّدي

أي: لا تحصره، ولا يكون في حيزٍ، أو مكانٍ مختص، بل الله - تعالى - في صفة العلوِّ بجميع أنواعها، وقد وصف نفسه بذلك في قوله - تعالى -: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١].

هذا اسمٌ من أسماء الله، وقوله - تعالى -: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠]، أثبت أنه - تعالى - هو العليّ الأعلى، فالأعلى من أسماء الله، يدلّ

على تحقيق هذه الصفة، التي هي صفة العلوّ بجميع أنواعه، وكذلك وصف نفسه بذلك في آخر آية الكرسي، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وهذا ـ أيضاً ـ يستدعي أنه العليُّ بجميع أنواع العلو، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

جعل ذلك من أسمائه العليّ، ومن صفاته أنه عليٌّ كبيرٌ، ولا التفات إلى من أنكر العلوّ، الذي هو علوُّ الذات، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، هكذا وصف نفسه بهذه الصفات، حيث يعتقد أهل السنّة صفة العلوّ لله ـ تعالى ـ فإنّ من جملة ذلك إثبات صفة علوّ الذات كما أثبته لنفسه، إلاّ أنّ أهل السنّة لا يقولون إنه محتاجٌ إلى شيءٍ من المخلوقات، ولا أنّها تحصره هذه الجهة، بل يقولون: نصفه كما أخبر أنه فوق العباد، وأنه ـ تعالى ـ هو العليُّ الأعلى، هذا مقتضى ما تدلّ عليه هذه الصفات. أما بالنسبة إلى علوّ القدر فإن هذا لا ينكرونه، بل يعترفون بأنّ الله موصوفٌ بالعلوّ، علوّ القدر، وأنه كما وصف نفسه، يعني: أرفع قدراً وأعلى قدراً من المخلوقات، فلا يمثّل بخلقه، والقدر يراد به المكانة والمقدار، كما يقال مثلاً: إنّ التمر أعلى من الحشف، يعني: أعلى قدراً، ويقال أيضاً: إنّ البرّ أعلى من الشعير، يعني: أعلى قدراً، فالله ـ تعالى ـ له علوُّ القدر على جميع المخلوقات.

كذلك علوّ القهر، الذي هو الغلبة، ثابتٌ ـ أيضاً ـ لله تعالى، فهو موصوفٌ بعلوّ القدر، وبعلوّ القهر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ...﴾ [الأنعام: ١٨]، وأثبت ـ أيضاً ـ أنّ فرعون ادّعى هذه الصفة، يعني علوّ القدر، بقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وليس مراده أنه أعلى مكانةً، بمعنى أنه بمكانٍ رفيع، وإنما مراده: أنه يصف نفسه بعلوِّ القدر، وبعلوِّ القهر، كأنه يقول: أنا الأعلى الغالب، والمتمكّن، يعني: أنه يصف نفسه بالمكانة الرفيعة، والربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ أولى بذلك، فهو الموصوف بأن له علوّ القهر والغلبة، وكلّ شيءٍ خاضعٌ لعظمته، وكلّ المخلوقات ذليلة تحت قهره، فالقهر أثبته لنفسه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

كذلك ـ أيضاً ـ قد ادّعاه آل فرعون بقولهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولا شكّ أنّ ذلك دعوى يدّعونها، والربُّ ـ تعالى ـ هو الموصوف بأنّ له العلوُّ، هذا معتقد الإمام أحمد رحمه الله، أي: هو في العلو مذهب أحمد، وإثبات أنّ الله ـ تعالى ـ موصوفٌ بالعلو، قد دلّت على ذلك الأدلة الكثيرة، التي فيها إثبات صفة العلوِّ لله تعالى، كما يليق به، من غير تشبيهٍ ولا تمثيل، فيثبتون هذه الصفة، ويجعلونها صفة كمالٍ ثابتةً لله، وقد استدلّ عليها بالنصوص الكثيرة، الدالة على هذه الصفة، فمن ذلك: التصريح بأنّ الله في السماء، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ، وقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧].

فإنّ هذا إثباتٌ لكونه ـ تعالى ـ في السماء، ولكن لا نقول: إنّ السماء تحصره أو تحيط به، بل نقول: إنّ معنى كونه في السماء: أي على السماء؛ لأنّ (في) تأتي بمعنى (على) كقوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: على الأرض، وكقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

أي: عليها، لا في أجوافها، كذلك ـ أيضاً ـ يفسّر السماء بالسمو، وهو الارتفاع، في السماء، يعني: في العلوِّ، وهو أعلى شيءٍ يمكن، والله ـ تعالى ـ



موصوفٌ به، وقد دلّت السنّة على ذلك كثيراً، كقوله ﷺ: (أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ...)[١].

وكقوله ﷺ: (ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[٢] وأشباه ذلك؛ فإنّ هذا دالٌّ على إثبات أنّ الله في السماء، والنصوص في هذا كثيرة، كذلك من الأدلة على صفة العلوِّ آيات العروج، كقوله: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤].

فإنّ العروج لا يكون إلاّ لما هو فوق، أي: للشيء الرفيع العالي، ومنه سمّي المعراج، وفي الحديث أنّ النبيَّ ﷺ عرج به إلى السماء كما جاء في حديث أنس ابن مالك ﷺ أنه حدث عن ليلة أسري بالنبي ﷺ فقال: « جَاءَهُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ، وَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى جَاءُوا لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَتَوَلاَّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)[٣]، وكذا الآية التي في الصعود وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠]، والصعود لا يكون إلاّ لما هو فوق، فأثبت بأنه يصعد إليه، يعني: يرتفع، كذلك ـ أيضاً ـ آيات الرفع، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

---

(١) البخاري (٤٠٠٤)، ومسلم (١٧٦٣).

(٢) الترمذي (١٩٢٤)، وأبوداود (٤٩٤١)، وأحمد ١٦٠/٢.

(٣) البخاري (٣٣٠٥).

أثبت بأنه رفعه، أو يرفعه إليه، والرفع لا يكون إلاّ إلى ما هو أعلى، كذلك قولـه جل وعلا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، أخبر بأنه رفع عيسى إليه، صريحٌ بأنه قد رفع إلى الله، كذلك قولـه عز وجل: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ...﴾ [فاطر: ١٠].

فهـذا ونحـوه دليلٌ ظاهرٌ على إثبات صفة الفوقية؛ لأنّ الله أثبت كلمة الرفع إليه، ولا تكون إلاّ إلى ما هو فوق.

وهكذا أيضاً آيات الفوقية، في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ...﴾ [الأنعام: ١٨]، وقد يقولون: إنّ المراد فوقية الغلبة، ولكن جاءت آية لا يمكن تأويلها، وهي قولـه جلا وعلا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ...﴾ [النحل: ٥٠].

فإنـه صـريحٌ في أنّ الخـوف مـن الله الـذي هـو مـن فـوقهم: يعـني: أنـه عـالٍ عليهم، وأنه فوق عباده كما يشاء.

وكذلك آيات النزول منه، فقـد أخبر بأنّ القرآن منزّلٌ منه، في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وفي قول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢]، وفي قولـه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ...﴾ [الزمر: ١]، ونحو ذلك كثير، فهذا دليلٌ على أنّ ربنا ـ تعالى ـ موصوفٌ بأنه هو العليُّ الأعلى؛ لأنّ النزول لا يكون إلاّ من أعلى، فنثبت هذه الصفة، التي هي صفة العلوّ لله، كما في قول الناظم:

فأجـبتُ بـل في العلـو مـذهب أحمـدِ

أي: أجاب بأنّ الله ـ تعالى ـ في العلوّ، كما أخبر عن نفسه، وكما دلّت على ذلك النصوص الكثيرة.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا فتزعم أن على العرش استوى قلت الصواب كذاك أخبر سيدي

قالوا فما معنى استواه أبن لنا فأجبتهم هذا سؤال المعتدي

الشرح:

عبّر هؤلاء السائلون بكلمة (تزعم) أي: تدّعي، والزعم كأنه يطلق على القول الذي ليس بصحيح، مثل قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ..﴾ [التغابن: ٧].

وجاء في الحديث (**بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا**)[1] ولكن لمّا أوردوا هذا السؤال الذي عبّروا فيه بالزعم على وجه الاستنكار، وعلى وجه التخطئة، بيّن الناظم ـ رحمه الله ـ أننا نقول ذلك، وليس زعماً، بل هو قولٌ صحيح، وعقيدةٌ سليمة، نقول بها، ونعتمد فيها على الأدلة النقلية الصحيحة، ونعتمد على خبر الله تعالى، الذي أخبر بذلك في القرآن الكريم.

وقد ذُكِر الاستواء على العرش في سبعة مواضع:

* في قول الله ــ تعالى ــ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾ [الأعراف: ٥٤].

* وفي قوله ـ عز وجل ـ في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ..﴾ [يونس: ٣].

وهكذا ذكر الاستواء في سورة الرعد، وفي سورة طه، وفي سورة الفرقان، وفي سورة السجدة، وفي سورة الحديد، فهذه سبعة مواضع، ذكر الله فيها

(١) أبوداود (٤٩٧٢)، وأحمد ١١٩/٤، ٤٠١/٥.

الاستواء على العرش، وهو من الصفات الفعلية، التي نثبتها لله ـ تعالى ـ كما أثبتها لنفسه، وننزّه الله ـ تعالى ـ عن خلاف ما أخبر به عن نفسه؛ ولذلك لا نفسِّر الاستواء بما يفسّره به النفاة والمعطّلة؛ وذلك لأنّ هذه الآيات ثقلت على المعطّلين، وصعب عليهم إثباتها؛ فلأجل ذلك سلّطوا عليها التأويلات يريدون بذلك إبطالها، فأنكروها عقلاً، يعني قالوا: إنّ العقل ينكر إثباتها، وأوردوا شبهاتٍ عقليةً، ذكرها كثيرٌ من أولئك المفسّرين، مثل: ابن الخطيب، الذي هو الفخر الرازي في تفسير سورة الأعراف، حيث أورد شبهاتٍ كثيرةً، حول مسألة الاستواء، وما يُفسَّر به، وأطال في ذلك من الشبهات العقليّة، ولكن لا يلتفت إليها؛ لأنها وهميّاتٌ لا أصل لها، وكذلك الزمخشري في تفسيره، وغيره ممن أنكروا هذه الصفة، وبالغوا في إنكارها؛ لأنها تخالف معتقدهم، حتى ذكر عن الجهم بن صفوان أنه قال: لقد أنكرتُ هذه الآية، ولو تمكّنتُ لمحوتها من المصاحف، يعني آية الاستواء، فلا عبرة بمن تأوّلها، وسلّط عليها أنواع التأويلات.

كذلك التأويلات اللُّغوية؛ وذلك لأنّ أولئك الأشاعرة والمعتزلة ونحوهم يدّعون أنّ السلف الذين هم أهل القرون الثلاثة المفضّلة يوافقونهم في إنكار صفة الاستواء على العرش، وصفة العلوِّ، ولكن يدّعون أنهم مفوضة، وأنهم يقولون: لا نخوض في هذه الآيات، بل نتركها، ولا نتعرّض لمعانيها، ولا نذكر شيئاً مما يتعلّق بها، وهذا هو التفويض الذين يدّعون أنه طريقة سلف الأمّة، ويمدحون طريقتهم، فطريقة السلف ــ في نظرهم ــ أنهم موافقون لهم في الإنكار، ولكن سكتوا عن التفسير، وعن التأويلات، وصاروا يفوّضونها بمنزلة الأميّين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾

[البقرة: ٧٨]، يعني: مجرّد تلاوةٍ دون أن يعرفوا شيئاً من الألفاظ، ويسمّونهم مفوضين، وأمّا حذّاقهم وأكابرهم فقالوا: لابدّ أن نبيِّن شيئاً لا يكون فيه دليلٌ على ما يخالف معتقدنا، فأوَّل بعضهم الاستواء بمعنى الاستيلاء، فقالوا: استوى: أي استولى، هكذا يدّعون، وقد خيّل إليهم أنّ هذا هو التأويل الصحيح، وأنهم بذلك سلموا من دلالتها على ما يخالف معتقدهم، واستدلّوا ببيتٍ ينسبونه إلى الأخطل، يمدح أحد الخلفاء، أو أحد الأمراء، يقول:

قد استوى بشرٌ على العراق ... من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق

ولا شكّ أنّ هذا: كذبٌ لا حقيقةَ له، بل كلامٌ موضوعٌ لا أهمّية له، ولا فائدة فيه، وهذا التأويل الذي قالوا: إنّ استوى بمعنى استولى، واعتمادهم على ذلك البيت الذي ينسبونه إلى الأخطل تأويلٌ بعيد، لا أصل له في اللُّغة، ولا تعرف العرب (استوى) بمعنى: استولى؛ ولذلك يقول ابن القيم في النونية:

ودليلهم في ذاك بيتٌ قاله ... فيما يقال الأخطل النصراني

هكذا ينكر عليهم هذا التأويل، الذي هو تأويلٌ بعيد، وإذا قيل: إنه صحيحٌ فإن له المعنى الصحيح، أنّ (استوى) بمعنى استقرَّ وثبت، وهذا هو ما يقوله أهل السنّة، فعرف بذلك بطلان هذا التأويل الذي يتخلّصون فيه - بزعمهم - من هذا المعنى؛ ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في النونية، لمّا ذكر أدلة العلوّ، بدأها بالاستواء بقوله:

منها استواءُ الربِّ فوق العرش في ... سبعٍ أتت في محكم القرآنِ

وكذلك اطّردت بلا لامٍ ولو ... كانت بمعنى اللاّم في الأذهانِ

لأتت بها في موضعٍ كي يحمل الـ ... ـباقي عليها وهو ذو إمكانِ

يقول: إنها استمرّت، واطّردت بلفظ (استوى) ولو أنها بمعنى (استولى) لجاءت في موضع واحدٍ بهذا اللّفظ (استولى) حتى يقال: يحمل المطلق على المقيد، فلما اطّردت كلّها بلا لام عرف أنّ هذه اللاّم قد زادوها من قبل أنفسهم؛ حتى يبرِّروا معتقدهم، فهي زيادةٌ وتأويلٌ وتحريفٌ لفظيٌّ من هؤلاء المعطّلة؛ ولذلك يقول ابن القيم - أيضاً - في النونية:

نون اليهود ولام جهميٍّ هما في وحي ربِّ العرش زائدتانِ

أي: أنّ اليهود لمّا قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، قالوا: حنطة، فزادوا نوناً، وكذلك الجهمية قالوا في (استوى): استولى، فزادوا فيها لاماً، فكلاهما سواءٌ في أنهما زائدتان في وحي ربِّ العرش.

ثمّ قال آخرون: إنّ العرش يحمل على أنّ المراد الملك، استوى على الملك، أي: استوى على ملك السموات، وملك الأرض، وأنكروا أن يكون لله - تعالى - عرشٌ قد خصّه بهذا الاستواء، ولا شكّ أنّ هذا إنكارٌ للحقائق؛ فإنّ العرش عند العرب: هو السرير الكبير، الذي يستقرُّ عليه الملوك، وسرير الملك معروفٌ عندهم؛ ولذلك ذكره الله ليوسف عليه السلام لمّا أنه ملك مصر في قوله - تعالى -: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾ [يوسف: ١٠٠].

أي: على سريرٍ مرتفعٍ، رفع عليه أبويه إكراماً لهما، فدلّ على أنه سريرٌ رفيعٌ، يرتفع عليه أهله؛ ليكون مكان رفعةٍ وتوقير، وكذلك ذكره الله عن ملكة سبأ، في قوله - عن الهدهد -: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، أي: سريرٌ تجلس عليه؛ لرفعة مكانها، ثمّ لمّا أرسل إليهم سليمان عليه السلام، وعرف أنهم سوف يأتون مسلمين، عند ذلك قال لجنوده: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، فدلّ على أنه سريرٌ كبير؛ ولذلك لمّا جاءت: ﴿قِيلَ

أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النحل: ٤٢]، دلّ ذلك على أنها اعترفت بأن لها سريراً رفيعاً؛ ولذلك قال: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، إذا جاءت وإذا هو قد تغير لونه: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ٤١].

هذه الآيات صريحةٌ في أنه مخلوقٌ عظيم، وصف الله ـ تعالى ـ في الآيات، هذا العرش الذي اختصّ به، بقوله ـ عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

أي: ربه، وخالقه، ومالكه.

وكذلك في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، أي: ربّ العرش، ومالك العرش، وذكر أنّ الملائكة يحملونه، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، دلَّ على أنه محمولٌ، وأنه مخلوق، وكذلك قوله ـ جل وعز ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، أي: الملائكة الذين سخّرهم الله، وخلقهم لحمل عرشه، ولا يحملونه إلاَّ بتقوية الله عزّ وجل، وذكر أنَّ الملائكة حوله، في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، أي: محيطين حوله، كلُّ هذا دليلٌ على أنه مخلوقٌ، وأنَّ الله ـ تعالى ـ خصَّه بأن استوى عليه كما يشاء، هكذا يعتقد أهل السنة، ويردون على هؤلاء الذين يؤولونه، والذين ينكرون أنْ يكون هكذا، وإذا عُرف بأنه مخلوق، وبأنَّ له حَمَلةً حملة العرش ـ الذين يحملونه كما يشاء الله، فكيف يحملونه دون أن يكون فوقه الله عز وجل؟!.

قد ذكر الله أنَّ هذا العرش عند الله تعالى، أو أنه على العرش، وجاء ذلك في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ: (**لماَّ قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده: غلبت – أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو موضوع عنده فوق العرش**)[1] ولّما وصفه الله بهذه العظمة، بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النحل: ٢٦] وبقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾[البروج: ١٥]. دلّ على أنه مخلوقٌ كبير، لا يحيط به إلاّ الله تعالى؛ ولذلك جاء في الحديث، في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قول النبي ﷺ: (**ما السموات السبع في الكرسيِّ إلا كدراهم سبعةٍ ألقيت في ترس**)[2]، الدراهم صغيرة، والترس هو المجنّ الذي يجعل على الرأس، وماذا تفعل سبعة دراهم في ذلك الترس؟ وجاء حديثٍ أبي ذر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**ما الكرسيُّ في العرش إلا كحلقةٍ من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**)[3]، أي: قطعة من حديدٍ متلاقية الطرفين، ألقيت في أرضٍ صحراء، هذه الحلقة ماذا تشغل؟ ماذا تغطّي من هذه الأرض؟.

فهكذا تكون نسبة العرش ونسبة الكرسي، أنّ الكرسيَّ صغيرٌ بالنسبة إلى العرش، وأنّ هذه السموات، وهذه الأرضين السبع، مع سعتها ـ كما نشاهد ـ أنها صغيرة، حقيرةٌ بالنسبة إلى هذا العرش، الذي خصَّه الله ـ تعالى ـ بأن استوى عليه، فإذا كان هكذا يكون منزلة العرش، وعظمته فكيف بعظمة

---

(١) البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢/٣.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢/٣.

خالقه؟ لا يحصي ذلك إلاّ الله، وحملته ـ أيضاً ـ لا يعلم قدرهم إلاّ الله، حتى قال النبيّ ﷺ: (**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ تعالى، مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سبعمائة عام**)[1] هذا مخلوقٌ من مخلوقات الله، الذين خلقهم لحمل العرش.

فهكذا يعتقد المسلمون أن العرش مخلوقٌ، وأن الله خصّه بأن استوى عليه استواءً يليق به، ثم إنَّ السلف والأئمة فسروا الاستواء ؛ وذلك لأنَّ الاستواء جاء في لغة العرب له عدة معاني، فجاء بدون أن يكون وراءه حرفٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ...﴾ [القصص: ١٤]، استوى: يعني تكامل، تكامل خلقه، وتكامل بلوغه، فهذا بمعنى التكامل .

ثم جاء ـ أيضاًـ بحرف (إلى) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ...﴾ [البقرة: ٢٩]، والاستواء ههنا بمعنى العلوّ، أي: علا عليها، وخلقها وسواها كما يشاء الله، وجاء الاستواء مقيداً بحرف (على) وهو دليلٌ على أنّ الاستواء بمعنى (العلوّ).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ...﴾ [هود: ٤٤].

استوت يعني: ارتفعت على الجبل، يعني السفينة، وكذلك قوله عز وجل: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ...﴾ [الزخرف: ١٣]، أي: ترتفعوا، وتستقرّوا على ظهور هذه المركوبات، وكذلك قول الله ـ جل وعلاـ في صفات المؤمنين: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧).

شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ...﴾ [الفتح: ٢٩]، يعني: ارتفع ذلك الزرع على سوقه، يعني: على قصبه التي يرتفع عليها، فذكر الله الاستواء مقروناً بـ(على) وهو دليلٌ على بمعنى الارتفاع كما يشاء الله.

كذلك ما سكت السلف، بل فسّروه بما يتبيّن أن له معنىً حقيقياً، لا أنه لفظٌ موهمٌ لا يدرى ما دلالته، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في تفسير السلف للاستواء:

ولهم عبارات عليها أربعٌ ... قد حُرِّرت للفارس الطعّانِ
وهي استقرّ وقد علا وكذلك ار ... تفع الذي ما فيه من نكرانِ
وكذاك قد صعد الذي هو رابعٌ ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهميِّ بالقرآنِ
والأشعريُّ يقول تفسير استوى ... بحقيقة استولى من البهتانِ

فهذه تفاسير السلف، أشهرها: أنّ (استوى) بمعنى (استقرّ) على العرش كما يليق به، وابن جريرٍ كلّما جاء آيةً من آيات الاستواء يقول: استوى على العرش، أي: علا وارتفع، فيفسّره بـ(علا) وذلك لأنه مقرونٌ بحرف (على). استوى على العرش أي: علا، وارتفع (ما فيه من نكران)، دليلٌ على أنهم يعتقدون أنّ الله ارتفع على العرش كما يشاء، وذكر أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنّى الشيباني اللُّغويُ، المشهور ـ رحمه اللهـ كان في عِلّيةٍ في منزله، فطرق عليه الباب بعض تلاميذه، فأطلَّ عليهم وقال: استووا إليَّ، يعني: ارتفعوا، فيختار: أنّ تفسير (استوى على العرش) يعني: صعد عليه كما يشاء، وهو أعلم من الجهمية بمعاني كتاب الله تعالى، ومن الذين أنكروا هذا التفسير ـ أنّ استوى بمعنى استولى ـ الأشعريُّ، أبو الحسن، الذي ينتسب إليه هؤلاء

الأشاعرة، ويدّعون أنهم على عقيدته، ألّف في آخر حياته كتاب (الإبانة في أصول الديانة).

ولمّا أتى على ذكر الاستواء صرّح بأنه استوى على العرش، أي: ارتفع عليه، ونقل عن المعتزلة أنّ استوى بمعنى (استولى) ثمّ قال: لو كان (استوى) بمعنى (استولى) لم يكن فرقٌ بين العرش وغيره؛ لأنّ الله قد استولى على السموات، واستولى على الأرض، واستولى على الجبال، واستولى على الخلق، واستولى على المنازل وعلى الحشوش، وعلى الأماكن كلّها، فهو مستولٍ عليها، وكلّها تحت ولايته، وتحت سيطرته، فلا يكون للعرش خصوصية، إذا قيل: (استوى) بمعنى (استولى) فإن الاستيلاء عامٌّ، والله قد خصَّص هذا العرش: بأنه استوى عليه، فلا بدّ أن يكون للعرش ميزةٌ وخصوصيةٌ تبين مزيته وفضيلته، أنّ الله خصّه بذلك، فهكذا يجب أن نعتقد استواء الله كما يليق به .

ثمّ قال الناظم ـ رحمه الله ـ:

قالوا فما معنى استواه أبن لنا؟ فأجبتهم هذا سؤال المعتدي

يعني: أننا لا نتكلّف، ونقول: كيفية الاستواء كذا وكذا، وما أشبه ذلك، بل نقول: إنه كما يليق بالله، ونترك التكلّف والسؤال عن الكيفية؛ ولما دخل رجلٌ على الإمام مالكٍ ـ رحمه الله ـ فقال: يا أبا عبد الله أرأيت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالكٌ ـ رحمه الله ـ حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلاّ مبتدعاً، ثمّ أمر بإخراجه.

هكذا نقل عن مالكٍ رحمه الله، وقد نقل ـ أيضاً ـ عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وهو من أجلاء علماء التابعين، ويعرف (بربيعة الرأي) كان مالكٌ يأخذ عنه كثيراً، أنه قال: الاستواء معلومٌ، والكيف مجهول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، ولعلَّ مالكاً تبع شيخه في هذا، وكذلك قد روي عن أمّ سلمة رضي الله عنها، إحدى أمّهات المؤمنين: أنّ الاستواء معلومٌ، والكيف مجهول، وقد يستدلُ المفوضة بهذا الأثر، أنّ مالكاً يقول بالتفويض، ولا يرى الخوض في معاني الاستواء ونحو ذلك، ونقول: بل إنه قدر صرّح ـ رحمه الله ـ بأنّ الله في السماء، وعلمه في كلِّ مكان، وأنه قال: الاستواء غير مجهول، أي: أنه لا تجهله العرب، ولا يمكن أن يقال: إنّ الله خاطب العرب بشيءٍ لا يعرفونه، أو بشيءٍ يجهلون معناه، أو بكلامٍ غير معلومٍ ولا معروف، بل إنه معلوم، فإن الاستواء معلوم، والاستواء غير مجهول، أي: هو كلامٌ عربيٌّ، كلامٌ فصيحٌ، تعرفه العرب، وتفهم معناه، ويفسَّر، ويترجم من لغةٍ إلى لغة، إلاّ أنّ له كيفيّة، وهذه الكيفيّة هي التي لا نخوض فيها، فلا نسأل عن الكيفيّة.

لا يقال: إنّ كيفيّة استوائه كذا وكذا، بل علا وارتفع، واستقرّ كما يشاء، دون أن نخوض في شيءٍ من كيفيته، وهكذا نقول في سائر صفات الله ـ تعالى ـ إنها معلومةٌ، وإنها ليست مجهولة، وإنّ لها كيفيّةٌ، وإنّ تلك الكيفيّة لا يجوز السؤال عنها؛ ولذلك كانوا يقولون في سائر الصفات: أمرّوها كما جاءت بلا كيف، أي: لا تسألوا عن كيفيتها، بل أمرّوها واعتقدوا حقيقتها وثبوتها، ولكن لا تبحثوا عن كيفيتها؛ فإنّ الكيفية هي المجهولة، ولكن المعاني الظاهرة واضحةٌ، ظاهرة الدلالة.

فهكذا يعتقد المسلمون في هذه الصفة التي هي صفة الاستواء، التي ذكرها الله ـ تعالى ـ وخصّ هذا العرش بهذه الميزة التي خصّه بها بأنه استوى عليه .

ولا شكّ ـ أيضاً ـ أنّ العرش مخلوق، فالعرش من خلق الله ـ تعالى ـ كما يشاء.

وقد اختلف العلماء، هل العرش أول المخلوقات، أو القلم الذي كتبت به المقادير هو أول المخلوقات، ورجّح العلماء أنّ العرش قبل المخلوقات كلّها؛ ولذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الرحمنِ

هل كان قبل العرش أم هو بعده قولان عند أبي العلا الهمداني

والحقّ أنّ العرش قبلُ لأنه وقت الكتابة كان ذا أركانِ

دلّ على أنه مخلوقٌ، وأنّ الله ـ تعالى ـ خلقه وخصّه بالاستواء عليه كما يشاء، فهو من المخلوقات التي ذكرها الله تعالى، وبيّن أنها من جملة خلقه، بل ـ عند أهل السنّة ـ أنه سقف المخلوقات، كما قالوا: محيطٌ بهذا الكون، وبهذه المخلوقات.

فهكذا نقول في هذا الاستواء، وفي هذه الصفة، ونعتقد ما يعتقده أهل السنّة والجماعة، ونعوذ بالله من الخوض فيما لا نعلم، ونعوذ به أن نقول عليه ما لا نعلم، ونتّبع في ذلك الأدلة الظاهرة، وكذلك ـ أيضاً ـ نتّبع طريقة سلفنا الصالح، وأئمّتنا رحمهم الله، وقد صرّح بذلك العلماء، كابن تيميّة، فإن له كتابٌ كبيرٌ، اسمه (العرشيّة) رسالة في هذا الموضوع .

كذلك في رسائله الأخرى، في الحمويّة، وفي التدمريّة، وفي الواسطية، وغيرها، وقبله وبعده السلف الذين اجتهدوا في ذكر العقيدة السليمة، التي هي

عقيدة أهل السنّة والجماعة، وذكروا آيات الاستواء، وأقرّوها كما شاء الله سبحانه وتعالى، واعتمدوا في ذلك على الأدلة الكثيرة، الواضحة، التي جاءت في الأحاديث النبويّة، وفي الآيات القرآنية، وكلام أئمّة الهدى وأعلام الهدى، الذين ساروا على النهج السوي، فإن من سار على طريقتهم وتمسّك بالسنّة فهو على الصراط المستقيم.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا النزول فقلتُ ناقله له قومٌ تمسّكهم بشرع محمدِ
قالوا فكيف نزوله فأجبتهم لم ينقل التكييف لي في مسندِ

الشرح:

يريد بالنزول الأحاديث التي رويت أن الله ـ تعالى ـ ينزل إلى سمائه الدنيا، كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، ومنها حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فاغفر له**)، وهذا الحديث مرويٌّ من طرقٍ كثيرةٍ في الصحيحين[1] وفي غيرهما، فيقول إن هذا النزول نقله قومٌ متمسّكون بشرع محمد، فقوله (**ناقله له**) وفي بعض النسخ (**ناقله لنا**) أي: الذين نقلوه لنا هم المتمسّكون بشرع محمد، وفي بعض النسخ:

قالوا النزول فقلت ناقله لنا قومٌ همُ نقلوا شريعة أحمدِ

فالذين نقلوه همُ الذين نقلوا أحاديث الأحكام، والذين نقلوا الحلال والحرام، ونقلوا أحاديث العقيدة، فلا يمكن أننا نقبل بعض حديثهم ونرد بعضه، فإن في ذلك تفريقٌ بين متماثلين، وهذا الحديث منقولٌ من طرقٍ صحيحة، ثابتة، متواترة، فلا يجوز أن نرده فهو كالأحاديث الأخرى التي نُقلت بهذه الأسانيد، وقد ذكر ابن كثيرٍ في بعض المواضع من تفسيره أن الذين

---

(١) البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

نقلوه نحو عشرة أشخاصٍ من الصحابة رضي الله عنهم، وقد ذكره بطرقه، ورواياته، أو بأكثرها الشيخ الحافظ الحكمي في شرحه لعقيدته، المسمى (معارج القبول في شرح سلّم الوصول إلى علم الأصول) فقد ذكر ما اطلع عليه من الروايات لهذا الحديث، برواية (ينزل) أو (نزل)

أو (هبط) أو (يهبط) ونحو ذلك، وكلّها مقبولة ليس منها شيءٌ لا يمكن قبوله، فالواجب أنّ أهل السنّة يقبلون مثل هذه الأحاديث، ولا يردونها، وقد نقلت بهذه الأسانيد الصحيحة، (ناقله لنا):

قومٌ همُ نقلوا شريعة أحمدِ

فالذين نقلوا سنّة أحمدٍ وشريعته، هم الذين نقلوه، وهم متمسكون بشرع محمّدٍ ﷺ تمسكاً قوياً، فلا يمكن أنهم ينقلون ما ليس بثابتٍ ولا بصحيح، ولا يجوز التفريق بين السنّة بأنّ يقبل بعضها، ويردّ بعضها، فهو في صحيح مسلمٍ، وصحيح البخاري، من طرقٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه وكذلك في السنن والمسانيد، عنه وعن غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، فلا يقال: تفرّد به صحابيٌّ؛ حتى يردّ، ولا يقال ـ أيضاً ـ: إنّ إسناده غريب، بل أسانيده ثابتةٌ صحيحة.

ثمّ إذا سألوا:

قالوا فكيف نزوله فأجبتهم لم ينقل التكييف لي في مسندِ

إذا قالوا: كيف ينزل، أو كيف يهبط؟ فإننا نتوقّف عن ذلك، ونقول: لا يجوز التكييف الذي يسأل عنه، فكما لا يسأل عن كيفيّة الاستواء فكذا النزول.

فالإمام مالكٌ، وشيخه ربيعة يقولان في الاستواء: الاستواء معلومٌ، والكيف مجهول، الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، فلا يجوز السؤال (بكيف) عن هذه الصفات، فلا يقال: كيف ينزل؟ بل ينزل كما يشاء، على

ما يشاء، وكما أنّ الله ـ تعالى ـ قد أثبت المجيء لنفسه، والإتيان في قوله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، فكما أننا نثبت المجيء، ونثبت الإتيان بلا كيف، يجيء ويأتي كما يشاء، ولا نكيّف ذلك، ولا نتأوله، ولا نردّه، فكذلك ـ أيضاً ـ نثبت هذا النزول، وصح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (**ما من يوم أكثر من أن يُعتق الله عز وجل فيه عبْداً من النار، مِنْ يوم عَرَفَةَ، وإنه لَيَدنُو ثم يباهي بهم الملائكةَ، فيقول: ما أراد هؤلاء**)[1]، وقد ورد أنه ينزل كلّ ليلة[2]، أي: أنه يتودّد إلى عباده، وأنه يسألهم؛ ولأجل ذلك كان الصالحون يتحرّون آخر اللّيل، فيقومون، ويتهجّدون، ويكثرون من سؤال الله تعالى، كما يشاء، هكذا يعتقد أهل السنّة إثبات هذا النزول كما يشاء الله، وقد أورد بعض المتكلّمين إشكالاً على هذا الحديث، ورفع ذلك إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأصدر في ذلك كتاباً مستقلاً، أو رسالة مطولة، تعرف (بشرح حديث النزول) وهي مطبوعةٌ، وقد توسّع فيها رحمه الله.

ذكروا أنّ اثنين اختلفا في هذا النزول، فأثبته واحدٌ، ونفاه الثاني، والذي نفاه من جملة ما احتجّ به: أنّ اللّيل يختلف باختلاف البقاع، وباختلاف

---

(١) مسلم (١٣٤٨).

(٢) تقدم تخريجه.

الأماكن، فيكون ثلث اللّيل في نجد، ثمّ يطلع الفجر، ويأتي ثلث اللّيل - مثلاً - في مصر، ثمّ يطلع عليهم الفجر، ويبدأ ثلث اللّيل في المغرب، وهكذا، فيكون ثلث اللّيل دائماً في كلّ حيٍّ، أو في كلّ جهةٍ، فيلزم منه أن يكون النزول مستمرّاً لا يتوقّف، هكذا أوردوا هذا الإشكال.

وقد أجاب عنه شيخ الإسلام: بجوابين: جوابٌ أنّ هذا الحكم خاصٌّ بالبلاد الإسلامية، وأنّ هذا النزول يختصّ بالبلاد الإسلاميّة؛ وذلك لأنه يتودّد إلى عباده الذين أسلموا، والذين عرفوا ربهم، فهو يتودّد إليهم بطلب التوبة، فهم الذين يتوبون من السيئات، وكذلك - أيضاً - الذين يستغفرون الله، والذين يسألونه فيعطيهم، هكذا.

والجواب الثاني: أنه لا مانع من أن ينزل الربُّ - سبحانه وتعالى - على كلّ بلدٍ، أو كل جهةٍ في آخر ليلهم؛ وذلك لأنّ الله - تعالى - لا يشغله شأنٌ عن شأن، فهو يتودّد إلى هؤلاء في آخر ليلهم، وإلى الآخرين - أيضاً - في آخر ليلهم، ولا مانع من أن يكون النزول لهؤلاء غير النزول لهؤلاء، على ما يشاء الله تعالى، وعلى ما يريد، والله - تعالى - على كلّ شيءٍ قدير، لا يشغله شأنٌ عن شأن.

ثمّ أوردوا - أيضاً - إشكالاً، قالوا: إذا نزل فهل يخلو منه العرش، أو ينزل ومعه العرش، أو وهو على العرش، وما أشبه ذلك، وهذا من التكلّف، وذكر بعض العلماء، ومنهم عبد الغنيّ بن سرور المقدسيّ - في عقيدته، يقول: أنّ هذا لا يجوز الخوض فيه، فالذي يقول: يخلو منه العرش، أو لا يخلو هذا مبتدع، لا يجوز أن نبحث معه، ولا نقول: إنّ هذا يقع، خلوّ العرش، أو عدم خلوّه؛ لأنّ هذا لم ينقل لنا، إذا قلنا - مثلاً -: إنّ التقعّر والسؤال عن مثل هذا

بدعة، فهكذا السؤال عن خلوّ العرش أو عدم خلوّه، من الأمور الغيبية، التي لا يجوز التقعّر والبحث فيها؛ لأنه بحثٌ بغير علمٍ، وقد ذكروا: أنه لا يجوز السؤال (بكيف) عن صفاته سبحانه وتعالى، فالكيف مجهول، وكانوا يقولون ـ في جميع آيات الصفات، وأحاديث الصفات: أمرّوها كما جاءت بلا كيف، أي: بلا تكييف، ويقولون في قبول أدلة الصفات: نقبلها من غير تشبيهٍ ولا تمثيل، ومن غير تحريفٍ ولا تأويل، ومن غير تكييفٍ ولا تعطيل، فالتكييف هو: إثبات الكيفيّة، بأن يقال: كيفية نزوله كذا وكذا، وكيفية استوائه كذا وكذا، وهكذا.

وهذا لا يجوز الخوض فيه، وقد ذكر ابن بطّوطة ـ في رحلته ـ: أنه لمّا جاء إلى دمشق، يقول: ولقيت فيها ابن تيمية، وإذا هو في المسجد، وإذا هو يتكلّم على حديث النزول، ويقول: إنّ الله ينزل كنزولي هذا، فنزل من المنبر درجتين أو ثلاثاً، هكذا يقول، وقد كذب على شيخ الإسلام.

فأولا: مجيؤه إلى دمشق كان وقت سجن شيخ الإسلام، بعد ما أدخل قلعة دمشق، وبعدما سجن، فما رآه، ولا لقيه، ولا اجتمع به، ـ وأيضاً ـ فهذه مؤلّفات شيخ الإسلام، ومنها حديث النزول، لم يذكر هذا المقال، الذي ابتدعه ابن بطوطة في رحلته، ممّا يدلّ على أنّ الأئمّة ـ ومنهم ابن تيمية رحمه الله ـ يتجنّبون التمثيل في أفعال الله تعالى، وفي صفاته، ومن ذلك تجنّبهم لكيفية الأفعال، أن يقال: يفعل كما يشاء بدون كيف، وكذلك ـ أيضاً ـ لا يسأل عن علل الأفعال التي لم تظهر لنا؛ لأنّ الله ـ تعالى ـ حكيم، يفعل ما يشاء لحكمةٍ

قد لا تظهر لكلِّ أحد، فلا يقال: لم فعل كذا وكذا، لم قدّر هكذا وكذا، ولم أثاب هذا دون هذا، ولم هدى هذا دون غيره.

السؤال (بلمَ) في أفعال الله بدعة، والسؤال (بكيف) في صفات الله ـ تعالى ـ بدعة، والمؤمن يقبل ما جاءه عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ دون أن يتقعّر في السؤال عن الغيبيات التي لا يعلمها إلاّ الله، هكذا طريقة أهل السنة في مثل هذه الأحاديث وما أشبهها.



قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالــوا فينظــر بالعــيون أبــنْ لــنا فأجـبت رؤيــته لمــن هــو مهـتدي

قالــوا فهــل لله علــم قلــت مــا مــن عــالمٍ إلاّ بعــلمٍ مــرتدي

الشرح:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد، وعلى آله وصحبه.

قوله:

قالــوا فينظــر بالعــيون أبــنْ لــنا فأجـبت رؤيــته لمــن هــو مهـتدي

يتعلّق هذا البيت بإثبات الرؤية، وأن الله تعالى يُرى بالأعين، وعلى ذلك أهل السنة والجماعة، أن الله يُرى في الآخرة، فقد ورد في الحديث الذي في الصحيح[1] ما يدلّ على أنَّ الله ـ تعالى ـ يأتي عباده في الآخرة، في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول: (**أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا**). بعد أن يكشف عن ساقه. كما جاء في الحديث، وهذا الحديث يفهم منه أن رؤية الله ـ تعالى ـ تكون عامةً للمنافقين والمؤمنين، وجاءت أحاديث تدلّ على أنّ الكفار لا يرون الله، وأنّ رؤيته خاصّةٌ بالمؤمنين، ويستدلّ الشافعي على ذلك بقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقد وردت أحاديث كثيرةٌ تدلّ على إثبات أنَّ المؤمنين يرون الله ـ تعالى ـ في الجنة، وأنه يتجلّى لهم كما يشاء، وأصحّ حديثٍ في ذلك حديث جرير بن عبدالله ﷺ، أن النبي ﷺ قال: (**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في**

(١) البخاري (٧٤٣٩).

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا)[(١)] يعني: صلاتي الفجر والعصر، ومناسبة ذكرهما ما رويَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢]، أنَّ من الرزق أنهم يزورون ربهم، ويرونه بكرةً وعشياً، وهذا الحديث وأمثاله دليلٌ صريح على أنَّ المؤمنين يرون ربهم رؤيةً عيانيةً بالأبصار، دون حجاب، كما يرون القمر ليلة البدر، وكما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وجاء ذلك - أيضاً - صريحاً في حديثِ أبي هريرة ﷺ: («أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْرِ؟)** قَالُوا: لا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **(هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟)** قَالُوا لا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **(فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ)**[(٢)].

وقد بين علماء السنة إثبات الرؤية، وأدلّتها، بالأدلة الواضحة الصريحة، وتكلّم على ذلك، وأورد الآيات والأحاديث ابن القيم في حادي الأرواح، في أواخر الكتاب، في أنّ المؤمنين يرون ربهم، وأورد سبع آياتٍ دالة على ذلك.

أوّلها: قصّة موسى ﷺ، لمّا قال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ... ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فبين أنها ممكنة، ولو أنّ النفاة والمعطّلين لم يثبتوها، واستدلّوا على منع الرؤية وعدمها بقوله: ﴿ لَن تَرَىٰنِي... ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبيّن أنّ ذلك إنما هو في الدنيا؛ لأجل ضعف بنية البشر، وأنه لا يمكن أنّ موسى - عليه السلام - يكون جاهلاً بربّه، فيكون هؤلاء المعتزلة أعلم بالله من موسى بن عمران، كليم الله تعالى، وأنّ الله لم يعاتبه لمّا قال: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ... ﴾

---

(١) البخاري (٧٤٣٤).

(٢) البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٢٦٧).

[الأعراف: ١٤٣]، بل علّق الرؤية على شيء ممكن، وهو قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ...﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأنه - تعالى - تجلى للجبل، وإذا جاز أن يتجلّى للجبل جاز أن يتجلّى لعباده في الدار الآخرة.

ومن الأدلة قوله جل وعلا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ويستدلّ بهذه الآية المعطّلة والنفاة: على أنه لا يرى في الآخرة، ولا يرى في الجنّة، وقد بين أن دلالتها على الرؤية واضحة؛ وذلك لأنّ الرؤية شيءٌ خاصٌ، دون الإدراك، وأنّ الإدراك هو الإحاطة، فالنفي إنّما هو الإدراك، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾، يعني: لا تدرك ماهيته، أو لا تراه كلّه؛ ولذا ورد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، قال أن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل، فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فقال له عكرمة: أليس ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أفكلها ترى؟»[1]. ومن الأدلة قوله - تعالى -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [المرسلات: ٢٢-٢٣]، ظاهرٌ بأنها تنظر إلى ربها، وفسّر قول الله - تعالى -: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ...﴾ [يونس: ٢٦]، أنّ الزيادة هي: النظر إلى وجه الله تعالى.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وكذلك آيات اللّقاء، في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ...﴾ [الكهف: ١١٠]، فإنّ اللّقاء إنما يكون بالرؤية والمقابلة.

---

(١) ابن أبي حاتم في تفسيره ٤/١٣٦٣، وابن جرير الطبري ١١/٥١٤، والدارقطني ١/١٨٧.

والحديث عن أبي موسى ﷺ، وفيه قوله ﷺ: **(وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)**[1].

فرؤيته خاصّةٌ بالمؤمنين ؛ ولهذا قال:

فأجبت رؤيته لمن هو مهتدي

رؤيته لمن هو مهتدي، أي: لأهل الاهتداء، وأهل الإيمان، فهم الذين يرون ربهم، ويتجلّى لهم كما يشاء، وقد تكلّم ـ أيضاً ـ على إثبات الرؤية الشيخ حافظ الحكمي في (معارج القبول) وأورد ما تيسّر له من الأدلّة، اختصرها من كلام ابن القيم، في (حادي الأرواح) وكلٌّ منهم جاء بما تيسّر له، وبكلِّ حالٍ فإنّ هذه عقيدة أهل السنّة، خلافاً لأهل البدعة، كالمعتزلة ونحوهم، وفي زماننا هذا الإباضية، وغلاة الأشاعرة، الذين يثبتون رؤيةً بدون مقابلة، ويدّعون أنّ الرؤية هي مكاشفةٌ، ليس لها حقيقة، هكذا وكذلك ـ أيضاً ـ الرافضة في كلِّ زمان، هم على عقيدة المعتزلة، ينكرون ذلك، وسبب ذلك: أنّهم يدّعون أنّ الرؤية يكون منها مقابلة، وهم لا يقرّون بأنّ الله ـ تعالى ـ في السماء، وينكرون أن يكون الله ـ تعالى ـ فوق عباده ؛ فلأجل ذلك اضطرّوا إلى أن ينكروا أنّ الله يُرَى، هذا هو الذي حملهم، فأهل السنّة يثبتون الرؤية كما يشاء الله تعالى، وإنما ينفون الإحاطة، أنه لا يحاط به ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ثمّ قال الناظم:

قالوا فهل لله علم قلت ما ... من عالمٍ إلاّ بعلمٍ مرتدي

---

(١) البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).



الله ـ تعالى ـ سمّى نفسه عليماً: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، وأثبت لنفسه العلم كما يشاء، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفي قوله جل وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وفي قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والآيات في ذلك كثيرة، فإذا وصفنا الله ـ تعالى ـ بأنه عالمٌ لزم من ذلك أن نثبت العلم لله تعالى؛ ولذلك يقول الناظم:

ما من عالمٍ إلاّ بعلمٍ مرتدي

يعني: إلاّ وله علمٌ متّصفٌ به، فإذا أثبتنا أنّ الله عالمٌ فلابدّ أن نثبت له العلم، وقد أقرّ بصفة العلم الأشاعرة، ولكن أنكروا آثار ذلك، وأمّا المعتزلة فإنهم أثبتوا الاسم بدون الفعل، فيقولون: إنّ الله عالمٌ بلا علم، ولا شكّ أنه تنقّصٌ لله سبحانه وتعالى، وعيبٌ له بما لا يعاب، فيقال لهم: إنّ العلم صفة مدحٍ، وصفة ثناءٍ، يثنى بها على الله تعالى، وأنّ من أنكر العلم لزمه أن يثبت ضدّه، ألا وهو الجهل، هذا شيءٌ لا محيد لهم عنه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ موصوفٌ بأنه عالمٌ بكلِّ شيء، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ...﴾ [يونس: ٦١]، وفي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ [لقمان: ٣٤]، وغير ذلك من الآيات، ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم بالأشياء قبل أن تحدث، ويعلم متى تحدث، وصفة حدوثها؛ فلذلك يجب إثبات

علم الله بكلِّ شيء، وأنّ الله علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، الذي هو موصوفٌ به أزلاً؛ فإنه موصوفٌ بأنه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنه خلق القلم فكتب كلَّ ما هو كائنٌ بأمره تعالى، أمره أن يكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، ذلك كلّه دليلٌ على سعة علمه، وأيضاً الأشياء المستقبلة إنما تحدث بعلمه وبإرادته، فقد علم عدد الخلق، وعلم أعمالهم التي سوف يعملونها إلى أن تقوم الساعة، وعلم بجميع السعداء والأشقياء، وما إلى ذلك، كلّ ذلك لا يكون إلاّ بعلمه سبحانه، فلله ـ تعالى ـ علمٌ، وله من أسمائه العليم، الذي هو بكلّ شيءٍ عليم، فمن أنكر هذه الصفة فقد تنقّص الله عزّ وجلّ.

وقد أورد أدلة العلم ـ الآيات ونحوها ـ كثيرٌ من العلماء، ومنهم أبو سعيد، عثمان بن سعيدٍ الدارمي ـ رحمه الله ـ في ردّه على الجهمية، وغيره من العلماء الذين اعتنوا بالصفات، وأثبتوها، وكذلك ـ أيضاً ـ الشيخ حافظ الحكمي، في (معارج القبول) وغيرهم، فيرجع إليها، مع أنها موجودةٌ في كتاب الله تعالى، أدلة واضحةٌ، جاء بلفظ الاسم، في قوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وجاء بلفظ الفعل الماضي، في قوله عز وجل: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبلفظ المضارع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ [النحل: ٧٤]، ونحو ذلك، فإذا كان ذلك فليس للعباد أن ينكروا شيئاً وصف الله ـ تعالى ـ به نفسه بأنه يعلم كلّ شيء، كما في هذه الآية: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ونحو ذلك، هكذا يجب على المسلمين أن يثبتوا صفات الكمال لله تعالى، وينزّهوه عن صفات النقص، ولا ينخدعوا بمن ينكر شيئاً من ذلك، من هؤلاء المعطّلة، نعوذ بالله منهم، ومن أعمالهم.

ويتقيد أهل السنّة بالأدلة التي وردت ، وبالآيات التي وردت في إثبات الصفات ، وصفة (الفهم) ما ورد عليها دليلٌ، ولكن لا شكّ أنّ العلم هو الذي ورد، وهو صفة كمال، فيتوقّف عن صفة (الفهم) أو قول فهم الله كذا وكذا، وإنما تطلق هذه الصفة على المخلوقين .



قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالــوا فيوصــف أنــه متكلّمٌ قلت السكوت نقيصة المتوحّدِ
قالوا فما القرآن قلت كلامه من غير ما حدثٍ وغير تجدّدِ
قالوا الذي نتلوه قلت كلامه لا ريب فيه عند كلّ مسدّدِ

الشرح:

يقول الكلوذاني ـ رحمه الله ـ:

قالــوا فيوصــف أنــه متكلّمٌ قلت السكوت نقيصة المتوحّدِ

صفة الكلام لله ـ تعالى ـ صفة كمال، فقد أثبت لنفسه أنه متكلّم، فكلّم موسى عليه السلام، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

وهذه الآية فيها إثبات أنّ الله كلّم موسى عليه السلام، وأنّ موسى عليه السلام سمع كلام الله، وكذلك ـ أيضاً ـ أخبر ـ تعالى ـ بأنّه ناداه من جانب الطور الأيمن، والنداء لا يكون إلاّ بكلام مسموع، ولماّ أنكر المعتزلة صفة الكلام، وادّعوا أنه يلزم منه ما يلزم من كلام الإنسان، فيلزم أن يكون بلسانٍ، وبلهوات، وبحنجرةٍ، ونحو ذلك، كما يدّعون، عند ذلك حاول بعضهم: أن يحرّف هذه الآيات، فطلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة أن يقرأ قول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ [النساء: ١٦٤]، فقال: لعلّك تقرأها وكلّم اللهَ موسى؛ بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلّم لا الله، فقال أبوعمرو ـ رحمه الله ـ هَبْ أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بهت المعتزلي[1]، يعني: أنك لا تستطيع أن تغيّر هذه الآية عن وضعها بتغيير الحركات؛ لأنها صريحةٌ أنّ الذي كلّم هو الربُّ تعالى، أي: الربُّ كلّم موسى عليه السلام، فعرف بذلك أنّ الله - تعالى - متكلّمٌ، وأنه قد كلّم من شاء من عباده، وأنه يكلّم الملائكة، ويكلّم جبريل عليه السلام، في الحديث أنّ النبيَّ ﷺ قال: (**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجّدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يُمرُّ جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء، سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجلّ**)[2].

أثبت بأنه يكلّمه كما يشاء، وكذلك - أيضاً - ثبت أنّ الله - تعالى - يزوره أهل الجنّة، ويكلّمهم، ويكلّمونه، ويسمعون كلامه، وكلُّ ذلك واضحٌ بأنه متكلّمٌ كما يشاء.

ويستدلّ على ذلك - أيضاً - بآيات النداء، فإنّ في القرآن ثمانية مواضعَ ذكر الله - تعالى - فيها النداء، كقوله - تعالى -: ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/١٧٧.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٣٧٣، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥١٥).

[الشعراء: ١٠]، وقول جل وعلا: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]، وقوله عز من قائل: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ..﴾ [القصص: ٦٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ..﴾ [الأعراف: ٢٢].

فهذه آياتٌ صريحةٌ في إثبات النداء، والنداء لا يكون إلاّ بكلامٍ مسموعٍ، كما هو معروفٌ في قول بعض الشعراء:

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النداء   فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلتُ ادع أخرى وارفع الصوت جهرةً   لعلّ أبا المغوار منك قريبُ

وكذلك قوله:

فقلتُ ادعي وأدعو إنّ أندى   لصوتٍ أن ينادي داعيانِ

فهذا ونحوه صريحٌ في أنّ الله ـ تعالى ـ ينادي، وأنّ النداء لا يكون إلاّ بكلامٍ مسموعٍ.

وكذلك ـ أيضاً ـ يثبت أهل السنّة: أنّ القرآن كلام الله، فلذلك قال الناظم:

قالوا فما القرآن قلت كلامه   من غير ما حدثٍ وغير تجدّدِ

أي: أنّ القرآن كلام الله:

من غير ما حدثٍ وغير تجدّدِ

أي: أنّ كلام الله ـ تعالى ـ لا يقال: إنه حادثٌ، يعني: أنه حدث بعد أن لم يكن، فإنّ الله ـ تعالى ـ متكلّمٌ بكلامٍ جنسه قديم، يقول العلماء: إنّ كلام الله ـ تعالى ـ قديم النوع، متجدّد الآحاد، أي: أنه لا يزال يتكلّم، بخلاف الذين يقولون: إنه تكلّم في الأزل، ثمّ انقطع، فلا يتكلّم الآن، فإنّ هذا نقيصةٌ وتنقّصٌ لله تعالى، فالأصل أن نقول: إنّ كلام الله ـ تعالى ـ قديم النوع،

حادث الآحاد، يتجدّد له الكلام إذا شاء، كما كلّم موسى عليه السلام، وكما يكلّم الملائكة، وكما كلّم محمداً ﷺ لمّا أسري به؛ وحيث إنّ المعتزلة ونحوهم أنكروا أنّ الله متكلّم ورد عليهم هذا القرآن، فلم يجدوا بدّاً من أن يقولوا: إنه مخلوق، وتتابع على ذلك هؤلاء المعطّلة أنه مخلوق، كما خلق الله بقية المخلوقات، فيقال: إنّ هذا إنكارٌ لما ذكره الله، فالله - تعالى - ذكر أنه كلامه، في قوله عز وجل: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]، أخبر بأنهم يسمعون كلام الله كما يشاء، وقال جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، أخبر بأنه يسمع ويستمع إلى كلام الله.

وقال - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، فالقرآن كلام الله، تكلّم به كما يشاء، واستدلّ على أنه كلام الله بمثل هذه الآيات، وكذلك إثبات أنّ الله - تعالى - متكلّم، وأنّ كلامه لا يحيط به أحدٌ من خلقه، ولا يحصيه، قد ذكر الله أنّ كلامه ليس له نهايةٌ ولا بدايةٌ في قوله جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

أي: لو أنّ هذا البحر جعل مداداً يكتب به فكتب كلام الله لنفد البحر، ولو جيء بمثل البحر عدّة بحارٍ لنفد البحر قبل أنّ ينفد كلام الله.

كذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول تعالى: لو أنّ أشجار الدنيا من أولها كانت أقلاماً، والبحر ومثله معه سبع مرّاتٍ كتب به كلام الله لتكسّرت تلك الأقلام، ونفدت تلك البحار، قبل أن ينفد كلام الله، فمن كلام الله ـ تعالى ـ هذا القرآن، الذي نزّله على نبيّه محمّدٍ ﷺ فهو كلام الله من غير ما حدثٍ، وغير تجدّد، نصفه بأنه كلام الله، وأنه قديمٌ، وأنه يتكلّم ـ سبحانه ـ بما شاء، كيف يشاء، وقد اتّفق أهل السنّة على أنّ القرآن كلام الله، ودلّت على ذلك الأحاديث، فإنّ النبيَّ ﷺ كان يمشي على العرب يقول: **(ألا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي)**[1].

أي: هذا القرآن الذي أنزله إليَّ، سمّاه كلام ربه، وكما نطق بذلك القرآن، الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل هذا القرآن، ولم يذكر أنه مخلوق، ولو كان مخلوقاً لجاء في موضعٍ واحدٍ أنه خلقه.

يقول بعض العلماء: إنّ الله ذكر الإنسان في نحو سبعة عشر موضعاً، صرّح بأنه خلقه، وذكر القرآن في أكثر من خمسين موضعاً، لم يصرّح إلاّ بأنه نزّله، من ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ [الرحمن: ١ـ٣]، ففرّق بين القرآن وبين الإنسان، فدلّ على أنّ القرآن كلام الله؛ ولذلك قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن: ٢]، وكذلك ذكر إنزاله، في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: ١]، ولم يقل خلقه، واحتجّ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ على أنه كلام الله بأنه يجوز الاستعاذة به، فإنّ النبي ﷺ قال: (مَنْ

---

(١) أبوداود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١).

نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)[١]، وقال إنه لا يجوز أنْ يستعاذ بالمخلوق، فدلّ على أنه كلام الله، لأنه أمر بالاستعاذة به، والاستعاذة لا تكون إلاّ بأسماء الله، أو بصفات الله، فدلّ على أنه صفةٌ من صفات الله ـ تعالى ـ كما يشاء، هذا هو كلام الله، الذي هو هذا القرآن.

ثم يقول: الناظم.

قالوا الذي نتلوه قلت: كلامه لا ريب فيه عند كلّ مسدّدِ

في بعض النسخ.

قالوا فما القرآن قلتُ: كلامه لا ريب فيه عند كلٌ موحّدِ

فيكون الذي نتلوه هو كلام الله، لا ريب فيه عند الموحدين، وعند أهل السنة والجماعة، أن الذي نتلوه هو كلام الله، يقولون لا يخرج عن كلام الله، إذا كتبه الكاتب فهو كلام الله، وإذا قرأه القارئ فهو كلام الله، على ما هو عليه، ويقولون إذا قرؤا هذا القرآن أو سمعوه يقولون الصوت صوت القارئ والقول قول الباري، فالصوت الذي نسمعه مخلوق؛ لأنه من إنسان، وكذلك إذا كُتب في المصاحف فالأوراق مخلوقة، والمداد والحبر مخلوق، ولكن الكلام الذي كُتب هو عين كلام الله، لا نقول إنه مخلوقٌ بل نقول إنه كلما قُرئ وكلما كُتب فإنه نفس كلام الله، كيف ما تُلي، لا ريب فيه عند كل مسدّد، فاعتقاد المسلمين أنّ الله ـ تعالى ـ متكلّمٌ؛ لأن السكوت نقيصةٌ بالسيد الذي هو الله

---

(١) مسلم (٢٧٠٨).

تعالى، فإنّ الساكت يعتبر عاجزاً عن بيان ما يفيده، هذا معنى كون السكوت نقيصةٌ بالسيد، فهكذا يعتقد المسلمون أنّ السكوت نقصٌ وأنّ الله ـ تعالى ـ متكلّمٌ وأنّ من جملة كلامه هذا القرآن وكذلك ـ أيضاً ـ الكتب المنزّله، فالتوراة كلام الله، التي أنزلها على موسى ﷺ، وكذلك الإنجيل، وكذلك الزبور، وكذلك صحف إبراهيم وموسى ﷺ، وكلها كلام الله تعالى، تكلّم بها حقاً، وسمعها أولياء الله، وسمعها أنبياؤه ورسله، كما شاء، فلا يقال إنها مخلوقةٌ كما يقوله المعتزلة، ولا يقال ـ أيضاً ـ إنّ الحروف مخلوقة، ونحو ذلك، فإن هناك من الأشاعرة من يوافقون المعتزلة على أن هذا القرآن ليس هو عين كلام الله، وإنما يدّعون أنه عبارة، أو ترجمة، ويقولون إنّ كلام الله شيء واحدٌ لا يتغيّر، إن عُبّر عنه بالعربية فهو قرآن، وإنْ عُبّر بالعبرية فهو توراةٌ، وإن عُبّر بالسريانية فهو إنجيل، فيدّعون أن كلام الله ليس هو هذه الحروف، وإنما هذه الحروف ترجمة، إما من جبريل ﷺ، وإما من محمد ﷺ، فينكرون أن هذا القرآن كلام الله بحروفه، فيقول أهل السنة ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، بل هو كلام الله، حروفه ومعانيه، تكلّم به الله تعالى، وجميع ما فيه دالٌ على أنه كلام الله، وقد ورد أنه ﷺ قال: (**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**)[1] أفاد بأنه حروفٌ، وكان الصحابة ومن بعدهم يحرصون على إقامة حروفه، ويقولون إقامة حروف هذا القرآن أحبّ إلينا من الإسراع فيه أو كما قالوا، فكونهم يجعلونه حروفاً دلّ

---

(١) الترمذي (٢٩١٠).

على أن هذا القرآن وهذه الحروف التي به عين كلام الله، لا أنها عبارة، ولا أنها ترجمةٌ، فهو كلما تُلي، وكلما قُرئ نفس كلام الله تعالى، ومتى عرف المسلمون أنه كلام الله فإنهم يهتمّون به قراءةً، وتلاوةً، وتدبّراً، وترتيلاً، وعملاً، وتطبيقاً؛ لأنهم يعتقدون أنه عين كلام ربهم، الذي تكلّم به، وأنّ كلامه ليس بمخلوق، وأنه ـ سبحانه ـ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، خالق كلِّ شيءٍ، ولا يدخل في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ صفاته، ولا أسماؤه، ولا كلامه، كما يستدلُّ بذلك المعتزلة، الذين يقولون: إنّ القرآن شيءٌ، ويقولون: الله خالق كلِّ شيء، فيقولون: إذا كان الله خالق كلِّ شيء فالقرآن شيءٌ، فيكون من جملة المخلوقات، فنقول: لا يدخل في هذه الآية صفات الله، ولا أسماؤه، ولا كلامه، كلّ ذلك لا يدخل في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الله ـ تعالى ـ قديمٌ بصفاته، ليس شيءٌ من صفاته مخلوقاً؛ لأنه هو الخالق، وما سواه من المخلوقات، وأمّا استدلالهم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وقالوا: جعل بمعنى (خلق) فإنّ هذا كذبٌ، وافتراءٌ على الله تعالى، وعلى اللُّغة الفصيحة؛ فإنّ لغة العرب إنما فيها الجعل بمعنى (التصيير) كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزخرف: ١٩]، أي: صيّروهم، فلا يكون هذا ـ أيضاً ـ دليلاً لما يقولون، من أنّ الجعل بمعنى (الخلق) فلا يغترّ بكثرة من يذهب إلى هذه المذاهب البدعية، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله العفو والغفران.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا فأفعال العباد فقلت ما ... من خالقٍ غير الإله الأمجدِ
قالوا فهل فعل القبيح مراده ... قلت: الإرادة كلّها للسيّدِ
لو لم يرده لكان ذاك نقيصةً ... سبحانه عن أن يعجّز في الرّدي

الشرح:

يقول الناظم ـ رحمه الله ـ:

قالوا فأفعال العباد فقلت ما ... من خالقٍ غير الإله الأمجدِ

يردّ بذلك على أقوامٍ من المبتدعة؛ وذلك لأنهم قد اختلفوا في أفعال العباد هل هي خلق الله، أو خلق العباد، فقالت المعتزلة: إنها خلق العباد، وأنّ الله عاجزٌ عن أن يخلق أفعال العباد، بل العباد مستقلّون بخلقهم لأفعالهم، وحكموا على ربهم ـ سبحانه ـ بأنه عاجزٌ عن ذلك، وأنكروا الآيات التي فيها أنّ الله ـ تعالى ـ يهدي ويضلّ، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

فعندهم أنّ العبد يهدي نفسه، وليس ربّه بقادرٍ على هدايةٍ ولا على إضلال، فالعبد هو الذي يفعل هذه الأفعال بقدرته، وبقوته، لا بقوّة الله تعالى، ولا قدرة لله عليه، هذا اعتقاد المعتزلة، ويسمّون ذلك (العدل) فهو أصلٌ من أصولهم الخمسة، وأصولهم هي:

الأول: التوحيد: ويريدون به نفي صفات الله تعالى، فإنّ عندهم أنّ صفات الله لو كانت ثابتةً لكانت زائدةً عن ذاته، فلذلك ينفونها.

الثاني: العدل: ويقولون إنّ الله لو خلق أفعال العباد ثمّ عاقبهم عليها لكان ظالماً لهم؛ لأنه هو الذي خلق فيهم هذه الحركات، خلق فيهم الكفر مثلاً،

فيعاقبهم ويكون ظالماً، وخلق فيهم المعاصي، فيكون ظالماً إذا عاقبهم على ذلك، ولم يظنوا أنهم يتنقصون الله، ولو فكّروا في ذلك لعرفوا أنهم يتنقّصون ربهم؛ حيث وصفوه بالعجز، ينكرون قول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، فإنّ ذلك صريحٌ في أنّ الله لا يعجزه شيءٌ، وفي أنه - سبحانه - قد أحكم ما خلقه، فلا يكون في الوجود إلاّ ما يريد، هذا هو معتقد أهل السنّة، رداً على هؤلاء الذين أنكروا قدرة الله على أفعال العباد.

الثالث: المنزلة بين المنزلتين: أي أن العصاة ليسوا كفاراً تحل أموالهم، ويجوز قتالهم، ولا مؤمنين نواليهم ونحبهم.

الرابع: إنفاذ الوعيد: يريدون الأحاديث التي وردت في العصاة المبتدعة أنها لا بد من إنفاذها فيخلدون أهل المعاصي في النار، مع أنها ليست مكفرة، ويخلدون المتبدعة في النار ولو كانت بدعتهم لا تصل إلى الكفر.

الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يضمنونه الخروج على الأئمة إذا ظهر منهم بعض المعاصي، وجواز قتالهم، وقد أخذوا ذلك عن الخوارج.

فيقول الناظم:

ما من خالقٍ غير الإله الأمجدِ

الله خالق كلِّ شيء، ومن جملة خلقه أفعال العباد، فهو الإله الأمجد، الذي لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج شيءٌ عن قدرته وإرادته، وقد كان النبيُّ ﷺ يؤكّد مثل ذلك بقوله: (**مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**)[١].

---

(١) أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٨٤٠).

أي: كلّ ما في الوجود فإنّ الله ـ تعالى ـ قد شاءه كوناً وقدراً، ومالم يشأ فإنه لا يكون، وهذا ـ أيضاً ـ تفسير الحوقلة، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أي: لا حول للإنسان، ولا تحول له من حالٍ إلى حال، ولا قوّة له، ولا قدرة له إلاّ بإرادة الله، وبتقوية الله تعالى، فهو الذي يقوّي هؤلاء، وهو الذي يعين هؤلاء، ولو شاء لهدى الناس جميعاً، أخبر بذاك في عدّة آيات، هذا هو قول أهل السنّة.

ثمّ إنّ هناك طائفةً غلوا في إثبات أفعال العباد، وصاروا يعتقدون أنّ العبد مجبورٌ على أفعاله، ونفوا أن يكون له أيّة قدرة، وأية إرادة، وأية همّةٍ بشيء، بل جعلوا حركته كحركة المرتعش، أو كالشجر الذي تحرّكه الرياح ليس له أيّة اختيار، وهؤلاء يقال لهم: الجبريّة، الذين يدّعون أنّ العبد مجبورٌ، على كلِّ فعلٍ جرى منه، لا ينسبون إليه أية فعلٍ، ولا أية همّة، بل يدّعون أنه مجبورٌ على أفعاله، وقد ذكر الله بعض حججهم التي يحتجّون بها على الكفر ونحوه، مثل قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ...﴾ [يس: ٤٧].

يعني: أنّ هؤلاء لو شاء الله لأطعمهم وأغناهم، فلا حاجة بنا إلى أن نطعمهم، أو نعطيهم، أو نجعل لهم شيئاً من أموالنا.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ...﴾ [الأنعام: ١٤٨]، هكذا أخبر، وكذلك قوله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ...﴾ [النحل: ٣٥]، فهؤلاء يحتجّون بهذه الحجج على أنهم مجبورون على أعمالهم، وأنهم ليس لهم أيّة همّةٍ، ولا أية قدرةٍ، ولا أية

إرادة، بل يدّعون أنهم مجبورون على أعمالهم، والغالب أنهم يحتجون بذلك على المعاصي، فإذا وقعوا في معصيةٍ احتجّوا بالقدر، واحتجّوا بالجبر؛ ولذلك أنكر عليهم العلماء، ومنهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ حيث يقول في (ميميّته):

وعند مراد الله تفنى كميّتٍ   وعند مراد النفس تسدي وتلحم

وعند خلاف الأمر تحتجّ بالقضا   ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم

فقوله:

وعند مراد الله تفنى

يعني إذا جاءك أمرٌ من الله فكأنك جمادٌ لا تفعله، وعند مراد النفس إذا كان لك هوى في أمرٍ من الأمور، وإذا كنت عازماً على أمرٍ فإنك تأتيه بكلِّ القوّة:

تسدي وتلحم

هذا العمل تسدي وتلحم عمل أهل النشز، الذين ينشزون، فيسدي ويلحم: يعني في الطول والعرض، أيّ: بكل حيلة:

وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضاء

إذا وقعت في أمرٍ مخالفٍ ومعصية وذنب، حجتك أنّ هذا مقضيٌّ عليك، **(ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم)** أي: أنك تدّعي أنك مجبور، هكذا أفعالهم، كذلك ـ أيضاً ـ أنشد ابن القيم ـ رحمه الله ـ قول بعضهم: ممن يحتجّون بالقدر فيقولون:

وضعوا اللحم للبزاة على ذِرْوَتَيْ عدن

ثم لاموا البزاة إذْ خلعوا لهنّ الرسنْ

لو أرادوا صيانتي ستروا وجهك الحسن



كأنه يحتجّ على الله، أنه عندما وضع هذه المغريات كان ذلك سبيلاً لوقوع هذه المحرّمات، وشبههم بمن وضعوا اللحم للبزاة .

البازي: هو الطائر الذي يأكل اللّحوم، إذا وضع له اللّحم، وأطلق له الرسن فإنه ينقضّ على ذلك ويأكله ؛ لأنه ليس هناك من يدفعه، فإذا لاموها، وقالوا: أخطأت يابازي ؛ لأنك أكلتَ هذا فإنه سوف يحتجّ، ويقول: ليس لي اختيار، أنتم الذين أغريتموني بهذا اللّحم، كيف تلومون البزاة وأنتم الذين خلعتم الرسن والقيد أمامها، ثمّ يحتجّ ويقول:

لو أرادوا صيانتي ستروا وجهك الحسن

كأنه يخاطب امرأةً كشفت وجهها، لو أرادوا صيانتي ستروا وجهها، ولكن لمّا كشفوا وجهها أمامي، وليس هناك دافعٌ ولا مانعٌ، وليس لي قدرةٌ على التحمّل، وعلى الصبر، اندفعت إلى أن وقعتُ في هذه الجريمة، التي هي الزنى.

وقد أنشد ـ أيضاً ـ بعضهم يبيّن عذر الإنسان العاصي ـ يقول:

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

يمثّل أنّ هذه حال الإنسان الذي وقع في المعصية، كإنسانٍ مكتوفٍ ألقي في بحر، وقيل له: إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء .

لا شكّ أنّ هذا خطأٌ وعجزٌ، كيف يلقى في البحر وهو مكتوفٌ، ويقال له: لا يبلّك الماء، هكذا يمثّلون أنفسهم، وقد ذكر أنّ واحداً منهم ادّعى أنه من أهل الذمّة، ونظم أبياتاً في هذا الأمر، ورفعها إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، افتتحها بقوله:

أيا علماء الدين ذمّيُ دينكم تحير دلّوه بأوضح حجة

إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

دعاني وسدّ الباب دوني فهل إلى دخولي سبيلٌ بيّنوا ليَ قضيتي

إلى آخرها، وألقاها على شيخ الإسلام، ولمّا ألقاها نظم شيخ الإسلام جواباً طويلاً على هذه الأبيات، في نحو مئةٍ وعشرين بيتاً[1]، افتتحها بقوله:

سؤالك يا هذا سؤال معاندٍ مخاصمِ ربٍّ العرش باري البريّةِ

ويَدعى خُصومُ الله يومَ معادهم إلى النار طرّاً معشر القدريةِ

سواءٌ نَفَوْهُ أو سَعَوا ليخاصموا به اللهَ أو مَارَوا به للشريعة

وقد شرحها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ـ رحمه الله ـ شرحاً وافياً، مطبوعاً، وقد نظم مثلها ـ أيضاً ـ الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري رحمه الله، بيّن معانيها مختصراً مقتصراً على المهمّ، الذي يبطل حجّة هؤلاء الذين يحتجّون بالقدر، على أفعال المعاصي، وقد بيّن النبيُّ ﷺ أنه لا عذر لهم، كما في حديث علي ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ)**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نَتَّكِلُ، فَقَالَ: **(اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ)**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾)[2].

أخبر بأنّ الله ـ تعالى ـ ييسّر هؤلاء وهؤلاء، وكلٌّ يكون إلى ما يميل إليه، وإلى ما أراده الله ـ تعالى ـ له كوناً وقدراً.

---

(١) شرحها سماحة شيخنا عبدالله بن جبرين في رسالة مستقلة ضمن سلسلة شروح الطريق.

(٢) البخاري (٤٥٤٦)، ومسلم (٤٧٨٦).

ثمّ يقول الناظم:

قالوا فهل فعل القبيح مراده قلت: الإرادة كلّها للسيّدِ

لو لم يرده لكان ذاك نقيصةً سبحانه عن أن يعجّز في الرّدي

فعل القبيح مراده، ولكن إرادةً كونيةً قدريّة، وقد ذكر العلماء: أنّ أفعال العباد مرادةٌ لله - تعالى كوناً وقدراً، فإن كانت من الطاعات، ومن القربات فإنها محبوبةٌ عند الله تعالى، وتكون الإرادة فيها إرادةً شرعيّةً وقدرية، وإن كانت من المعاصي فإنها مرادة لله كوناً وقدراً، وليست مرادةً له ديناً وشرعاً، هكذا قسّموا الإرادة إلى قسمين: إرادةً شرعيّةً، وإرادةً قدرية، فالإرادة الشرعية تختصّ بالأعمال الصالحة، فنقول: إنّ الله أراد من الخلق كلّهم أن يعبدوه، وأن يعملوا له الأعمال الصالحة، ولكن هذه إرادة شرعيةٌ قد لا يقع مرادها، فأراد من الكفار ديناً وشرعاً أن يؤمنوا، وأن يطيعوه، ولكن ما أراد ذلك منهم كوناً وقدراً، ولو أراده كوناً وقدراً لحصل، وأراد من المؤمنين أن يؤمنوا، أراد ذلك منهم كوناً وقدراً، وديناً وشرعاً، فحصل مراد الله منهم موافقاً لما قدّره، ولما أراده، فالطاعات التي وقعت أرادها الله كوناً وقدراً، وديناً وشرعاً، والمعاصي التي وقعت أرادها الله كوناً وقدراً، ولم يردها ديناً وشرعاً، ولّما خفي هذا التقسيم على المعتزلة ضلّوا في هذا الباب، وكذلك - أيضاً - على الجبريّة، ضلّوا - أيضاً - في هذا الباب، فجميع المعاصي مرادةٌ لله، ولكنّها إرادةٌ كونيّة، قدرية، قدّرها في الأزل، وإن كانت مبغوضةً ومكروهةً له، فلو شاء لما حصلت ولهذا قال:

قلت: الإرادة كلّها للسيّدِ

جميع ما في الكون فإنه مرادٌ لله كوناً وقدراً، ولو لم يرد ذلك ثمّ حصل لكان ذلك نقصاً عليه:

سـبحانه عـن أن يعجـز في الـرَّدِي

لو لم يرد هذه المعاصي ثمّ حصلت كان ذلك نقصاً عليه، حيث يوصف بأنه عجز عن بعض الكائنات، وأنه عجز عن أن يردّ هؤلاء العصاة ونحوهم.

وبعد ذلك نقول: إنّ جميع ما في الكون مرادٌ لله كوناً وقدراً، فالطاعات مرادةٌ لله كوناً وقدراً، وديناً وشرعاً، والمعاصي مرادةٌ لله كوناً وقدراً، وليست مرادةً له ديناً وشرعاً، كذلك - أيضاً - نقول: إنّ الله - سبحانه وتعالى - أمدّ الإنسان بهذه القدرة التي يزاول بها الأعمال، والتي تنسب إليه، وهي داخلة في قدرة الله، ولكنها حاصلة بقدرة العبد، فالعباد لهم قدرة، يزاولون بها أعمالهم، وهذه القدرة هي التي يعملون بها، فللعباد قدرةٌ على أفعالهم، يقول ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في العقيدة الواسطية[1]، يقول: «والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والصائم، وللعباد قدرةٌ على أعمالهم، ولهم إرادةٌ والله خالقهم، وخالق قدرتهم وإرادتهم»، فإذا علمنا: بأنّ العباد تنسب إليهم أفعالهم؛ لأنهم الذين زاولوها، والذين أصدروها وعملوها، وأنهم مع ذلك يلامون على هذه الأفعال، وأنّ أفعالهم كلّها لا تخرج عن قدرة الله تعالى، وعن إرادته، زال عنّا هذا الإشكال، الذي يحتجّ به الطائفتان، طائفة المعتزلة،

---

(١) ١/١٦٤ بشرح سماحة شيخنا عبدالله بن جبرين رحمه الله.



الذين لم يجعلوا لله قدرةً، بل يجعلون العبادَ مستقلّين بأفعالهم، وبذنوبهم، فينسبون الله إلى العجز، وأنّ قدرة العبد أقوى من قدرته، وينكرون دلالة الآيات، مثل قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

فيقال: إنهم تنقّصوا الخالق تنقّصاً ظاهراً، وكذلك - أيضاً - الجبرية الذين زادوا في ذلك، ونفوا قدرة العبد أصلاً، فإذا جعلنا الأقسام ثلاثةً، فالمعتزلة أنكروا القدرة من الله على العباد، والجبرية أنكروا قدرة العباد على أفعالهم، وأهل السنّة هم وسطٌ بين هؤلاء، فأثبتوا للعبد قدرةً، وجعلوها خاضعةً لقدرة لله تعالى، وننزّه الله - تعالى - عن أن يكون فعل القبيح مراده، فإن كلّ ما يصدر من تقدير لله فإنه ليس بقبيح، بل الأصل أنه حسنٌ بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، فلا يقال: إنه قبيح، ولو خلق المعاصي، ولو خلق الفواحش، ولو خلق الزنى ونحو ذلك بالعبد، فليس فعل الله - تعالى - كلّه قبيح، ولكن لا نقول: إنه ليس خلق الله، لو لم يرده وحصل كان نقيصةً:

سبحانه عن أن يعجّز في الرَّدِي

هذا معنى قوله:

فهل فعل القبيح مراده

نقول: الإرادة كلّها للسيد، ولكن صدوره بقضاء الله، فإن صدور الشرك، وصدور القتل، وصدور الزنى، وصدور المعاصي بإرادة الله، ولكن لا يقال: إنه قبيح بالنسبة إلى الله، وإنما قبحه بالنسبة إلى العبد، الذي قد أعطاه الله قوّةً وقدرةً فصرفها في هذه المعاصي، فيكون اللّوم عليه، هذا مجال هذا العمل الذي هو أفعال العباد.



قال النَّاظم رحمه الله:

قالوا: فما الإيمان ؟ قلتُ مجاوباً: عمــلٌ وتــصديقٌ بغــيرِ تــبلُّدِ

الشرح:

يتعلّق هذا البيت بتعريف الإيمان؛ وذلك لوقوع الخلاف بين أهل السنَّة وبين المرجئة، فإنَّ المرجئة أخرجوا الأعمال عن مسمَّى الإيمان، وسمُّوا مرجئةً: لأنَّهم أرجؤا الأعمال، يعني: أخَّروها، فجعلوا الإيمان هو مجرَّد التصديق، دون أنْ تدخل فيه الأعمال، وقيل: سمُّوا مرجِئةً: لأنَّهم غلَّبوا جانب الرجاء؛ وذلك لأنَّ الذين يجعلون الإيمان هو مجرَّد التصديق عندهم: أنَّه لا يضرُّ مع الإيمان ذنب، وقاسوا ذلك على أنَّه لا يقبلُ مع الشِّرك والكفر عمل، هكذا معتقدهم.

ولا شكَّ أنَّ الإيمان في الأصل: هو التَّصديق الجازم، ومنه قول الله ـ تعالى ـ عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدِّق لنا، ولكنْ أصبحَ الإيمان مسمًّى شرعياً فدخلتْ فيه الأعمال كلُّها؛ فلذلك يقال: إنَّ الأعمال من مسمَّى الإيمان، فيعرِّفونه: بأنَّه قولٌ باللِّسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان، يزيد بالطَّاعة، وينقص بالعصيان. ودليل ذلك قول النبي ﷺ: **(الإيمانُ بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شعبة: أفضلها: قول لا إله إلاَّ الله، وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطَّريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان)**[1] وذِكْرُ البضْع والسَّبعين قيل: إنَّه للتقليل، وقيل: إنَّه للتكثير، ولا يراد به نفس

---

(١) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

العدد، وتكلّف بعض العلماء وأوصل شعبَ الإيمان إلى بضع وسبعين، فأدخل فيه العبادات البدنيَّة، والعبادات القوليَّة، والعبادات القلبيَّة، ولا شكَّ أنَّها كلَّها داخلة في مسمَّى الإيمان؛ لأنَّ الإيمان أصبح مسمًّى شرعياً؛ فلأجل ذلك يدخلُ فيه الكلام، كلمة لا إله إلاَّ الله، والقراءة، وسبحانَ الله، والحمدُ لله، واللهُ أكبر، ولا حولَ ولا قوَّة إلاَّ بالله، وأستغفرُ الله، والأمرُ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والنَّصيحة، والدعوةُ إلى الله ونحو ذلك من الألفاظ التي هي دينيَّة كلُّها من الإيمان، وكذلك أيضاً الأعمال القلبيَّة؛ كالمحبَّة، محبَّة الله، ومحبَّة نبيِّه، ومحبَّة أوليائه؛ من الصالحين، وكذلك الخوف من الله ورجاؤُهُ، وكذلك العبادات القلبيَّة؛ الرَّغبة، والرَّهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة ونحوها، فتدخل في اسم الإيمان، وهكذا أيضاً الأعمال البدنيَّة؛ كالصَّلاة: ركوع، وسجود، وقعود، وانحناء، وقيام. وكذلك الصِّيام، وكذلك الجهاد، وقتالُ الكفَّار، والحج، والعمرة، والطَّواف، والسَّعي ونحو ذلك من الأعمال البدنيَّة، هذه كلُّها من الأعمال التي تَدْخلُ في مسمى الإيمان، يعني: أنَّ الإيمان يعمُّ ذلك كلَّه، وهكذا أيضاً جميع الأعمال الشَّرعيَّة.

ثمَّ يقال كذلك في التُّروك، فإنَّ ترك المعاصي إنَّما حملَ عليه الإيمان، فالإيمان يحملُ المسلم على ترك الشِّرك، وعلى تركِ الكفر، وعلى تركِ القتل، والزِّنى، والسَّرقة، والخمر ونحو ذلك من التي قد تندفع إليها النَّفس بقوَّة، ولكنْ إذا عَرَفَ المسلم أنَّ الله حرَّمها، ونازعتْه نفسه على أنْ يفعل شيئاً منها ولكنَّه ارتدع عن ذلك فهذا يقال: ما حمله على ذلك إلاَّ الإيمان، فتكونُ كلُّها من مسمَّى الإيمان.

الأعمالُ الصَّالحة فِعلها قربةٌ وعبادة تدخلُ في مسمَّى الإيمان، وكذلك أيضاً تركُ السَّيِّئات ما حملَ عليه إلاَّ قوَّة الإيمان، فتدخلُ في مسمَّى الإيمان.

وقد اشتهرَ عن مرجِئة الفقهاء أنَّهم يدَّعون أنَّ الإيمان مجرَّد التَّصديق والمعرفة، وعلى ذلك كثيرٌ من فقهاء الأحناف على أنَّ الإيمان لا يعمُّ الأعمال؛ ولذلك أنكر عليهم العلماء، وسمُّوهم: المرجئة أو مرجئة الفقهاء، وقد كثُرَ التَّحذير منهم، وبالغ الإمام أبو بكرٍ الخلاَّل في كتاب السنَّة، وأورد كثيراً من الآثار التي تذمُّ هؤلاء المرجِئة، وتحذِّر من طريقتهم، مع أنَّهم من السَّلف رحمهم الله وعفا عنهم، وسبب ذلك: أنَّهم إذا جعلوا الأعمال لا تدخلُ في مسمَّى الإيمان أباحوا المعاصي، وسهَّلوا أمرَها؛ لأنَّها لا تضرُّ المؤمن ما دام أنَّه مصدقٌ وموقنٌ، وكذلك أيضاً أباحوا ترك الطَّاعات، وجعلوها لا تؤثِّر على الإيمان، فكثير منهم يُبيْحون المحرَّمات والمعاصي، ويعتمدون الرَّجاء، ويقولُ قائلهم:

فكثِّر ما استطعتَ من المعاصي … إذا كان القدومُ على كريمِ

ويحث الآخر على المعاصي بحجة سعة رحمه الله فيقول:

تكثر ما استطعت من الخطايا … فإنك بالغ رباً غفوراً
ستبصر إن وردت عليه عفواً … وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعضُّ ندامة كفيك مما … تركت مخافة الناس السرورا

ولا شكَّ أنَّ هذا ونحوه من التَّساهل في أمرِ الله، ودعوة للإكثارِ من الذُّنوب، مع أنها رينٌ على القلوب.

ونقول - أيضاً -: لا شكَّ أنَّ المعاصي تُثقِّل الطَّاعات، وقد قال بعض العلماء في تعريف تحقيق التَّوحيد: إنَّه تخليصُ التَّوحيد وتصفيته عن شوائبِ الشِّرك

والبدع والمعاصي؛ وذلك لأنَّ الشِّرك ينافي التَّوحيد، والبدع تقدحُ في التَّوحيد، والمعاصي تُنقِّص ثوابه، فلا يكون الإنسان موحِّداً كاملاً إلاَّ إذا تجنَّب هذه كلِّها، ومن جملتها المعاصي، ولو كانت صغيرة؛ لأنَّ الشَّيطان يدعو إليها، وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنَّ له عدَّةُ عقبات يدعو إليها: العقبة الأولى: الكفر والشِّرك، فإذا ظفِرَ به استراحَ من ذلك الإنسان، فإنْ أسلمْ طلبه على العقبة الثانية؛ وهي: البدع، بأنْ يوقعَهُ في البدع عقديَّةً أو عمليَّة؛ وذلك لأنَّ المبتدع يستحسنُ عمله، ويدَّعي أنَّه على صواب، فإذا ترك البدع واعتنق السنَّة دعاه إلى كبائر الذنوب؛ لأنَّه إذا أصرَّ عليها ثقلتْ عليه الطَّاعات، فإذا تركها ولمْ يعملِ الكبائر دعاه إلى الصغائر، وهي العقبة الرابعة؛ لأنَّ الإصرار على الصَّغائر والإكثارَ منها سببٌ في جعلها كبائر، فإنَّه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، فإذا لم يعْملها، وترك صغائر الذَّنوب دعاه إلى عقبةٍ خامسة؛ وهي: الانهماك في المباحات، والإكثارُ منها، فإذا عصاهُ فإنَّه يصْرِفُهُ عن فضائلِ الأعمال، وعن الأعمال الرَّاجحة إلى الأعمالِ المرجوحة التي هي أقلُّ ثواباً، فإذا لم يطعْه لم يكنْ هناك بقيَّة إلاَّ أنْ يسلِّطَ عليه أعداءه، أي: يسلِّطَ عليه أولياءَ الشَّيطان.

وبكلِّ حالٍ فإنَّ المعاصي والإصرار عليها تُثقِّلُ الطَّاعات، فالذين أخرجوا الأعمال من مسمَّى الإيمان أباحوا المعاصي، وأباحوا ترك الطَّاعات، وإنْ لم يصرِّحوا بذلك؛ لذلك أكَّدَ أهل السنة على أنَّ الأعمال من مسمَّى الإيمان، وأنَّ المؤمن لا بدَّ أن يعملَ الصَّالحات، ثمَّ ذكروا أيضاً أنَّ الإيمان يزيد بالطَّاعات، وينقص بالمعاصي، وقد دلَّ على زيادته آياتٌ كما في قوله تعالى:

﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران، ١٧٣] أخبر بأنَّ هذه المقالة زاد بها إيمانهم، وفي قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]، صريحٌ في أنَّ الآيات القرآنية تزيدهم إيماناً، وكذلك في قوله تعالى: جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، صريحٌ في أنَّ السُّورة من القرآن إذا عملوا بها زاد إيمانهم، وهكذا قوله عز وجل: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا.. ﴾ [المدثر: ٣١]، يعني: يقوى إيمانهم، ويتمكَّن من قلوبهم، فهكذا الأعمال داخلة في مسمَّى الإيمان، وهكذا أيضاً الإيمانُ يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعاصي، فإذا تمكَّن الإيمان من القلب وامتلأ به فإنَّ أهلَهُ يُبْغضون المعاصي، وينفرون منها، ويبتعدون عنها، ويحبُّون الطَّاعات، ويتلذَّذون بها، ويفرحون بها، هذا هو الفرق بين قويٍّ الإيمان وضعيف الإيمان، فنتواصى بأنْ نحرصَ على ما يقوِّي إيماننا، وما يزيده، وما يكمِّله، ونبتعد عمَّا ينقِّصه.

قال النَّاظم رحمه الله:

قالوا: فمن بعد النبيِّ خليفةً ... قلتُ: الموحِّدُ قبلَ كلِّ موحِّدِ
حامِيهِ في يومِ العريشِ ومنْ له ... في الغارِ مسعدُ يا له من مسعدِ
خيرُ الصَّحابة والقرابةِ كلِّهم ... ذاكَ المؤيَّدُ قبلَ كلِّ مؤيَّدِ
قالوا: فمنْ صدِّيقُ أحمدَ قلتُ: مَنْ ... تصديقُهُ بينَ الورى لمْ يُجْحَدِ

الشرح:

بعدما ذكر العقيدة في الأسماء والصفات، وفي القرآن ونحو ذلك أتْبعهُ بخلافةِ الخلفاء رضي الله عنهم.

وهذه القصيدة قرأتُها قبلَ عام ١٣٦٥هـ، حيثُ أوردها الشيخ محمد بن مانع ـ رحمه الله ـ في رسالة له في العقيدة سؤالٌ وجواب في مسائل التَّوحيد، فذكر هذه القصيدة؛ وذلك لأنَّ ناظمها هو أبو الخطَّاب؛ محفوظ بن أحمد الكلوذاني، من قرية اسمها كلوذا، قرب بغداد، وهو حنبليٌّ، وطبعَ له كتاب الهداية، وطبع له ـ أيضاً ـ المسائل الكبار، وغير ذلك من كتبه، وله تراجم في كتب التأريخ.

ثم لمَّا قرأتُها، وتعرَّض للصَّحابة رضي الله عنهم كنتُ في ذلك الوقت مبتدئاً، ولا أعرفُ أنَّ أحداً ينكر خلافة الخلفاء، فاستغربت! ما الموجب لذكر الخلفاء في العقائد، وما علمت في ذلك الوقت أنَّ هناك من يطعن فيهم، ومن ينكر خلافتهم، ومن يدَّعي أنَّهم مغتصبون للخلافة إلاَّ بعدما قرأتُ في كتبِ الرَّافضة، وكذلك في كتبِ العقيدة؛ حيث تبيَّن لنا أنَّ ذِكرَ الخلافة في أمرِ العقيدة؛ لأجل أنَّ الخلافَ فيها مع هؤلاءِ المبتدعة، الذين هم الرَّافضة.

وسبب طعنهم في الخلفاء: ادعاؤهم انهم كتموا الوصية، فالصحابة كلهم في نظر الرَّافضة اتَّفقوا على كتمانِ الوصيَّة، لَّما رأوا أنَّ الخِلافة ما حصلتْ لعليٍّ أوَّل الخلفاء، وإنَّما هو رابع الخلفاء، عند ذلك قالوا: لا بدَّ أنَّهم تواصوا على كتمانها، وإلاَّ فإنَّ عندهم أنَّ النبي ﷺ عهد بالخلافة إلى علي ﷺ، وجعله هو الوالي، وجعله هو الإمام، فلمَّا رأوا أنَّ الخليفة بعده أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله عنهم، قالوا: لا بدَّ أنَّهم مغتصبون، وإنَّهم أخذوا هذه الخلافة وهم لا يستحقُّونها؛ فلأجل ذلك شنَّعوا عليهم، وأخذوا يسبُّونهم، بل يدَّعون أنَّ جميع الصَّحابة رضي الله عنهم ارتدُّوا لَّما لمْ يبايعوا علياً ﷺ، ولم يستثنوا منهم إلاَّ نفراً قليلاً؛ فلأجل ذلك فإن العلماء يذكرون الخلفاء في العقائد.

وقد توسَّع في ذلك العلماء رحمهم الله، وذكروا فضائل الصحابة رضي الله عنهم، فالبخاري في صحيحه جعل كتاب الفضائل، ويدأها بفضائل أبي بكرٍ ثم عمرَ ثم عثمانَ ثم علي رضي الله عنهم، مما يدلُّ: على أنَّ هذا مستقرٌّ عندهم، وأنَّ هذا ترتيبهم في الفضائل، وكذلك مسلم ـ رحمه الله ـ في كتابه الصحيح، جعل كتاب فضائل الصحابة ﷺ بدأ بفضائل الخلفاء الرَّاشدين على ترتيبهم، وكذلك ابن ماجه في سننه، والتِّرمذي في سننه، وكذلك الذين كتبوا في العقائد أو كتبوا في التَّأريخ، فإنَّهم اتفقوا على فضل الخلفاء، وأفردهم الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بكتابٍ مطبوع، وهو كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم.

ثم إنَّهم يقولون: إنَّ هذه الطُّعون التي يطعنون بها ممَّا يزيد الله بها الصَّحابة والخلفاء رضي الله عنهم أجراً ورفعة؛ فكأنَّهم يُهدون إليهم أعمالهم، فأعمالكم أيُّها الرَّافضة يأخذها هؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم الذين تشنِّعون عليهم وتكفِّرونهم، وبالأخص: الخليفتان: أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

ذُكِر في الكتب التي تناقش مذهبهم أنَّهم طبعوا بطاقة، يجعلها أحدهم في جيبه دائماً بعد كلِّ صلاةٍ، أو عندَ كلِّ مساءٍ، أو كلَّ صباح يدعون بها، مبدؤها يقولون: اللهم العنْ صَنميْ قريش، وجِبْتَيْهِما، وطاغوتيهما، وابنتيهما، إلى آخر ما يقولون عليهم من الله ما يستحقون.

وهذا الدُّعاء عندهم له مكانة، حتى إنَّ بعضهم شرحه، واعترفَ بذلك بعضهم، كصاحب الكتاب الذي خرجَ قبلَ سنوات (لله ثمَّ للتَّاريخ) رافضيٌّ ولكنَّه أعلنَ الحق، وأعلنَ الصَّواب، ذكرَ هذا الدُّعاء، وذكر من شرحه منهم، والرافضة يفسِّرون قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥٠]، فيقولون: الجبت والطاغوت: أبو بكر وعمر؛ فلأجلِ ذلك العلماء نبَّهوا على فضائلِ الصَّحابة، وبالأخص: أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

فيقول النَّاظم:

قالوا: فمن بعد النبي خليفةً ... قلتُ: الموحِّد قبلَ كلِّ موحِّدِ

أي: مَنِ الذي صارَ خليفة؟ فقال: الموحِّد قبلَ كلِّ موحِّد، يعني: الذي هو أوَّلُ من أسلم من الرِّجال، اتَّفقوا على أنَّ أوَّلَ من أسلم من الرِّجال أبوبكر ﷺ، وأول من أسلم من الصِّبيان عليٌّ ﷺ، وأوَّل من أسلم من الموالي زيد بن حارثة ﷺ، وأوَّل من أسلم من العبيد بلال ﷺ، وأوَّل من أسلم من النِّساء خديجة رضي الله عنها، ولا خلاف في ذلك بين أهل السنَّة، ولكنَّ الرَّافضة يدَّعون أنَّه ما أسلم، ويدَّعون أنَّه كالمنافق، يُظهر الإسلام ويبطن الكفر، أي: أنَّه ليس مسلماً حقاً،

هكذا معتقدهم، بل يدَّعي بعضهم أنَّه لم يزلْ يعبُدُ الأصنام بعد أنْ أسلم، وكلُّ هذا من البهتان: ﴿ سُبْحَانَكَ هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

وكان سببُ إسلامه أنَّه صحب النبي ﷺ في سفر، فرأى أمارات الصِّدْق، ورأى أماراتِ النبوَّة؛ منها:

أنَّه تُظِلُّه غمامة، إذا سارَ راكباً أو ماشياً سيَّر الله غمامةً تُظِلُّه أينما ذهب، ولا شكَّ أنَّ هذه خاصِّيَّةٌ وفضيلة.

كذلك ـ أيضاً ـ لَّما مرَّ براهبٍ يقال له: بحيرى، يهوديٌّ، ورأى ما رأى منه، عرفَ أنَّه النبي المذكور في كتبهم، وأشار عليهم، وقال: لا تذهبوا إلى اليهود فإنَّهم سوفَ يحاولون أنْ يقتلوه، ولكنْ ردَّ الله ـ تعالى ـ كيدَهم.

علاماتٌ كثيرة ظهرتْ لأبي بكر ﷺ، عرفَ بها صدْقَهُ، فكان أوَّل من أسْلم.

كذلك ـ أيضاً ـ لَّما أسلم واسى نبيَّ الله ﷺ بنفسه وماله، فكان دائماً يفدي النبي ﷺ بما يقدر عليه، حتى قال ﷺ: (**مَا نَفَعَنِي مَال قط مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**) فبكى أبوبكر وقال: (هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله)[1].

في حال الشدَّة كان أبو بكر ﷺ تاجراً قبلَ أنْ يسلم وبعدما أسلم، وعنده مال، فكان ينفقُ في وجوه الخير، وكلَّما أسلم أحدٌ من الموالي، أو العبيد اشتراه من ماله وأعتقه، فكان أبوه أبو قحافة — قبل أن يسلم يقول: ياولدي: ليتكَ تعتق رجالاً أقوياء يحمونك، وينصرونَك، فيقول: يا أبتِ هذا ما أريد، أريد حمايتي، يعني: من عذاب الله، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ـ٢١].

---

(١) أحمد ٢/٢٥٣، والترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤).

بمعنى: أنَّه يتصدَّق بماله، يُخرجه كزكاة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ هكذا وعَدَهُ الله بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، ونزل فيه ـ أيضاً ـ قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]، الذي جاءَ بالصِّدق النبي ﷺ والذي صدَّقَ به أبوبكر ﷺ؛ ولُقِّب: بالصِّدِّيق؛ لقوة صدقه، ولقوة تصديقه؛ لأنَّه لم يكذِّب النبي ﷺ في أمرٍ من الأمور، بل بادر إلى تصديقه في كلِّ شيء، ولمَّا أنَّ النبي ﷺ ذكر أنَّه أُسْرِيَ به تعجَّبَ أهل مكَّة، كيف تزعمُ أنَّه أُسْرِيَ بكَ ووصلتَ إلى بيت المقدس ورجعتَ في ليلتك، ونحن نسافرُ شهراً ذهاباً وشهراً إياباً؟! حتى إنَّ بعض من أسلم ارتدُّوا، وجِيءَ إلى أبي بكر ﷺ وقيل له: إنَّ صاحبكَ يزعم أنَّه أُسْرِيَ به في اللَّيلة البارحة، ووصل إلى بيت المقدس ورجع، هل هذا يمكن؟! فقال: صدق. فقالوا: أتصدِّقهُ في هذا كلِّه؟! قال: إنِّي أصدِّقه في خبر السَّماء أنه ينزل عليه؛ وهو أعجب من ذلك، الملك ينزل من مسيرة خمسمائة سنة أو أكثر، فكيف لا أصدِّقه في هذا، فسمِّيَ بالصدِّيق، وهذا شيء من فضائله، ثم يقول النَّاظم:

حامـــــيه في يـــــوم العـــــريش ..

كان ذلك في غزوةِ بدرٍ لمَّا أقبلَ المشركون لقتال المسلمين في بدر، وبني للنبيِّ ﷺ عريش من سعفٍ، أو من جريد، واستمرَّ يصلِّي في ذلك العريش، ولمْ يكنْ معه إلاَّ أبو بكر ﷺ، فجعل يحميه، وكذلك ـ أيضاً ـ لمَّا أصبح ودخل في المعركة، أخذ يحميه، ويقاتل دونه، أو يقاتل إلى جانبه؛ كلُّ ذلك لوقايته نبيَّ الله ﷺ وحِرْصِه عليه، فهو الذي حماه في يوم العريش.

كذلك يقول:

ومـــن لـــه في الغـــارِ مُـــسْعِدُ يـــا لـــه مـــن مُـــسْعِدِ

المُسْعِد: المُعين، يعني: أنَّه في الغار كان مُسْعداً للنبي ﷺ ؛ وذلك لمَّا عزم ﷺ على الهجرة تآمر المشركون على أنْ يقتلوه، ثمَّ أخذوا من كلِّ قبيلة شاباً، وقالوا: خذوا سيوفاً حادَّة، واضربوه بها ضربةَ رجلٍ واحد؛ حتى يضيع دمُهُ بين القبائل، ويرضى بنو هاشم بالدِّية، فندفع لهم الدِّية، ثمَّ لمَّا اجتمعَ هؤلاءِ الشَّباب أعمى الله أبصارهم وبصائرهم، ونزلَ في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]، خرجَ النبي ﷺ وهم جلوسٌ ولم ينظروا إليه، وأخذ من التراب وجعل على رؤوسهم، فأعمى الله بصائرهم، ثم إنَّه عزم على أنْ يهاجر، فقال أبو بكر ﷺ: عندي راحلتان، أعطيك واحدةً منهما، وأنا واحدة، والصحبة يا رسول الله، فلبَّى طلبَه، وعزم على أنْ يخرجَ معه، ولكنْ في أيام طلب قريشٍ له، واشتدادهم في متابعته، صعدَ هو وإيَّاه إلى الغار، وكانوا عندما خرجوا ليلاً من مكَّة يسير قدَّامه أحياناً، ثم يسير وراءه، فيقول: إذا ذكرتُ الطَّلب سرت خلفك، أحميك من الطَّلب الذي يطلب، وإذا ذكرتُ الرَّصد ـ الذين يرصدون لنا ـ أسير قدَّامك، ولم يزل هكذا، ولمَّا صعِد في رأس الجبل وقبل أنْ يدخل في الغار قال له: قف قليلاً حتى أدخل، ليتفقَّد الغار، فدخله وأصلحه، وأزال ما فيه من الحجارة، ثم كان فيه جحَرَة، أي: فجعل في كلِّ جُحْرٍ حجراً حتى لا يخرج منها هوامٌّ أو حشراتٌ تؤذي.

يقولون: بقِيَ جُحْر لم يجدْ حجراً يسدُّه، فسدَّه بعرقوبه، وبقي كذلك، وكان ولده عبد الرَّحمن يتعاهدهما كلَّ ليلة، ويأتيهما بالأخبار.

كذلك ـ أيضاً ـ كان لأبي بكرٍ ﷺ غنمٌ يرعاها راعٍ له، فكان يأتي إليهما كلَّ ليلة بحليبٍ يتغذَّيان به، والراحلتان قد أودعهما أبو بكر مع أحد الرعاة، ووعده بعد ثلاث ليال، وصحبه من مكّة إلى المدينة، وهو رفيقه في هذه الرحلة التي استغرقت نحو عشرة أيام، وكانت قريش قد بذلت لمن يأتي بكلٍّ واحدٍ مائةً من الإبل، من جاءنا بمحمدٍ فله مائة، ومن جاءنا بأبي بكرٍ فله مائة، وفي طريقهما رآهما إنسانٌ وأخبر سراقة بن مالك بن جُعْشُمْ، من بني مُدْلِج، وقال: هذا محمدٌ وصاحبه، فركِب سراقة على فرسٍ جواد، وسعى خلفهما حتى قَرُبْ، فلمَّا قَرُبَ دعا عليه النبي ﷺ فساختْ قوائم فرسه في الأرض، فعرفَ أنَّه لا حيلة له، فناداهما وقال: ادعوا الله لي، وأنا لا أضرُّكما، فدعا له، فثارتْ فرسه، ورجع وقال لمن وافاه: قد كُفِيْتم هذا، فكان أبوبكر ﷺ في الغار، وفيما بعد الغار هو الذي حماه ﷺ.

ثمَّ يقول النَّاظم:

خـــير الـــصَّحابة والقـــرابة كُلِّهـــم

أي: عند أهل السنَّة أنَّه أفضل الصَّحابة، وأنَّه أفضل القرابة؛ لأنَّه من أقارب النبي ﷺ، من بني تيمِ بن مرَّةَ بن كعبِ ابن لؤيٍّ بن غالب، ولأنَّه بذلَ كلَّ ما يستطيع في نصرة النبي ﷺ، ما تخلَّف عنه في غزوةٍ من الغزوات، ولا تأخَّر عنه، دائماً في كلِّ غزوةٍ بل يكون مع المتقدِّمين، فهو خير الصَّحابة، وقد اتَّفق أهل السنَّة على أنَّه أفضل الصَّحابة، أي: أنَّه أقدمهم في الفضل، وكذلك أيضاً أحقُّهم بالخلافة، ولمَّا مرِض النبي ﷺ قال: **(مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس)** فاقترحَ بعض أمَّهات المؤمنين أن ينوِّبَ عمر ﷺ، فأكَّد وقال: **(مروا أبا بكرٍ**

فليصلِّ بالناس)(١) فصلَّى بهم أبو بكر ﷺ تلك الأيَّام، صلى بهم ﷺ مدَّة مرضِ النبي ﷺ، ولمَّا توفي النبي ﷺ لم يكن أبو بكرٍ ﷺ عنده، بل كان في أرضٍ لـه، وأنكرَ عمر ﷺ على الذين قالوا: مات، وقال: ما مات، ولمَّا جاء أبو بكر ﷺ ودخل عليه أكبَّ عليه وقبَّله وقال: بأبي أنتَ، طبتَ حياً وميِّتا، أما الموتة التي كتبَ الله عليك فقد مُتَّها، ثم خرجَ والناس في المسجد يخوضون، فصعد المنبر، وحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أمَّا بعدُ: فمنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثمَّ أخذَ يذكرُ الآيات، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، يقول عمر ﷺ وغيره: فكأنَّنا ما سمعنا هذه الآية قبلَ قراءته لها، وقرأ قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ونحو ذلك من الآيات، ولمَّا علموا موته قالوا: لا بدَّ من خليْفة، واجتمعوا في سقيفةِ بني ساعدة، وكان الأنصار قد رشَّحوا واحداً منهم: وهو سعد بن عبادة ﷺ، وقالوا للمهاجرين: مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير، فعند ذلك قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: نحنُ الأمراء، وأنتم الوزراء، إنَّ الرَّسول ﷺ قال: **(إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كتب الله على وجهه ما أقاموا الدين)**(٢)، فعند ذلك: تكلَّم أبو بكرٍ ﷺ وتكلَّم عمر ﷺ، فلمَّا تكلَّم أبو بكرٍ ﷺ قال: بايعوا أحَدَ هذين الرَّجلين: عمر أو أبا عبيدة، وثَقُلَتْ هذه الكلمة على عمر ﷺ،

---

(١) البخاري (٦٧٨، ٦٨٧)، ومسلم (٤١٠، ٤١٨).

(٢) البخاري (٣٥٠٠).

وقال: ما كنت لأتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر، ثم قال: بايعوا أبا بكر، رضيناه لدنيانا كما رضِيَه النبي ﷺ لديننا، إذا كان رضِيَه لصلاتنا، أي: جعله إماماً لنا في حياته، وكان أيضاً يستخلفه كلّما حدث شيء، فإذا رضِيَهُ لديننا ألا نرضاه لدنيانا؟ فلا بدَّ أنْ نؤمِّره، رضِيَه للصَّلاة وهي دين فنرضاه للولاية، فعند ذلك بايعوه، وتمّت له البيعة، ولمّا تمّتْ له البيعة أيَّد الله به الدِّين؛ وذلك لأنَّ العربَ البوادي كفروا وارتدُّوا عن الإسلام، وقالوا: لو كان نبياً ما مات، فثبَّتَ الله أبا بكر ومن معه في المدينة، فقالوا: لا بدَّ أنَّنا نقاتلهم إلى أن يرجعوا إلى الإسلام، فجاء بعض الأعراب ليستبيحوا المدينة فاجتمع الصَّحابة بقيادة أبي بكر ﷺ وقاتلوهم وانهزموا، ورجعوا خائبين، فكان ذلك من أمارات النَّصر، وكان النبي ﷺ قد جهَّز جيشاً يغزو الشام، وأمَّر عليهم أسامةَ بن زيد ﷺ، وأمره بأنْ يغزو تلك الجهة التي قُتِلَ فيها أبوه لغزو الرُّوم، ولمّا توفِّيَ النبي ﷺ قالوا لأبي بكر: لا تُرْسلْ هذا الجيش؛ لأنَّ الناس قد ارتدُّوا، وهذا قوَّةٌ لك، فأصرَّ وقال: لا أردُّ جيشاً جهَّزه النبي ﷺ، فعند ذلك أرسلَ ذلك الجيش بقيادة أسامة ﷺ، وكلّما مرُّوا على بعض الأعراب الذين يريدون أنْ يرتدُّوا قالوا: لو كانوا ضعفاء ما أرسلوا هذا الجيش الذي فيه قوَّتهم، فذهب ذلك الجيش، وأغاروا على بعض البلاد، ورجعوا سالمين غانمين، فكان ذلك ممّا ثبَّت الله به أبا بكر ﷺ.

ثم يقول النَّاظم:

ذاك المؤيَّد قبلَ كلِّ مؤيَّدِ

يعني: أنَّ الله ـ تعالى ـ أيَّده بنصره، في أقلَّ من سنة، فالأعراب الذين في البوادي وقد ارتدُّوا قضى عليهم فأسلموا؛ وكان منهم من عادوا إلى عبادة الأصنام، ومنهم

من منعوا الزّكاة، ومنهم من صدّقوا المتنبّئين، وكان قد تنبّأ مسيلمة الكذّاب، ولمّا مات النبي ﷺ بايعه خلقٌ كثير، أكثر من مائةٍ وعشرينَ ألفاً، فأرْسلَ إليهم أبو بكر ﷺ خالد بن الوليد ﷺ أميراً وليس معه إلاّ سبعة آلاف، ثمَّ إنَّهم صبروا في القتال وتسلّق بعضهم على مسيلمة وقتله، وبعد ذلك تفرَّقوا، وكذلك غيره.

وفي نحو عشرة أشهر عادتِ الجزيرة كلُّها إلى الإسلام ببركةِ أبي بكر ﷺ وصبره، فأيَّده الله، وهذا معنى قوله:

ذاك المؤيَّد قبل كلِّ مؤيَّدِ

ثم يقول:

قالوا: فمن صدِّيقُ أحمدَ قلتُ: مَنْ تصديقه بين الورى لم يُجْحدِ

أي: أنَّه الصدِّيق؛ لأنَّه بالغ في الصِّدق، وبالغَ في التَّصديق، في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، هو منهم؛ لأنَّه عاهد الله، وبايع النبي ﷺ على أنْ ينصره وعلى أن يؤويه، وعلى أنْ يؤمن به، فوفّى بما قال، فبذلك يسمَّى صدِّيق أحمد، أي: الذي صدَّقه.

تصديقه بين الورى لم يجحد

أي: لا يمكن لأحدٍ أنْ يجحد تصديقه وثباته وصدْقه وجهاده وعمله وصحبه، ولمّا توفّي طلبَ في وصيَّته أنْ يُدْفن مع النبي ﷺ بالحجرة النَّبويَّة، فدُفِنَ فيها، ثم كذلك عمر ﷺ أيضاً دُفِنَ فيها، ولمّا دُفِنَ شهد عليٌّ ﷺ وقال: هذا ما كنت أظن فأنّي أسمع النبي ﷺ كثيراً يقول: ذهبتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، دخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، جلستُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، يكرِّر دائماً، فكانا وزيريه في حياته، وقرينيه في مماته، هكذا:

تـــــصديقه بـــين الـــورى لم يجحـــــد

ولا عبرة بمن جحده أو طعن فيه من هؤلاء الأعداء الذين هم أعداء الدِّين، وأعداء المسلمين، وحسبنا الله ونعم الكافي ذو العزِّ والقدرةِ والإلطافِ.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا فمن تالي أبي بكر الرضا ... قلتُ الإمارة في الإمام الأزهدِ

فاروق أحمد والمهذّب بعده ... نصر الشريعة باللّسان وباليدِ

الشرح:

الخليفة الثاني ـ بعد أبي بكر ﷺ ـ هو عمر بن الخطّاب ﷺ، بن نفيلٍ، من بني عدي بن كعب ﷺ، يجتمع مع النبيِّ ﷺ في كعب بن لؤي، كان إسلامه فتحاً، كما ذكر ذلك عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قال: (ما زلنا أعزّةً منذُ أن أسلم عمر)[1].

وكان قبل الإسلام متشدِّداً على المسلمين، ثمّ إنّ الله ـ تعالى ـ قذف في قلبه محبّة الإسلام، وجاء والنبيُّ ﷺ وأصحابه مستخفون في دار الأرقم، فلماّ أسلم قال لهم: ألسنا على الحقِّ؟ فلماذا هذا الاستخفاء؟!.

فأمرهم فخرجوا ليصلّوا في المسجد، خرجوا في صفّين، صفٌّ فيه عمر، وصفٌّ فيه حمزة رضي الله عنهم، ولماّ رأى المشركون ذلك أحزنهم؛ لأنه أخذ الإسلام يزداد ويقوى أهله، ثمّ إنه لازم النبيَّ ﷺ واستمرّ معه في مكّة يذبُّ عن الإسلام وعن المسلمين، ولماّ فتح باب الهجرة إلى المدينة هاجر ـ ﷺ ـ في عشرين راكباً من المؤمنين في مكّة، قبل هجرة النبيِّ ﷺ عند ذلك استقرّ بالمدينة، وقد ترك عقاره، وترك تجارته، وترك داره، وترك قومه، كلّ ذلك محبّةً للإسلام، ومحبّةً للنبيِّ ﷺ.

---

(١) البخاري (٣٦٨٤).

ثمّ لماّ هاجر النبيُّ ﷺ مكث معه وهو خير قرينٍ له، وكان دائماً يخرج معه، ويذهب معه، ولا يترك النبيَّ ﷺ ولا يتأخر عنه، ولم يتخلّف في غزوةٍ من الغزوات التي غزاها النبيُّ ﷺ وصاهره النبيُّ ﷺ فتزوج ابنته التي هي حفصة بنت عمر، وصارت من أمّهات المؤمنين، وكان أبوها يتعاهدها، ويعرض عليها ما تحتاج إليه، ويقول: لا تكلّفي النبيَّ ﷺ شيئاً لا يقدر عليه، ورد في فضله ـ رضي الله عنه ـ أحاديث كثيرة، فمنها:

(شهادته له بالجنّة، مع العشرة المبشرين بالجنّة، وهم: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبوعبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم)[١].

كذلك ـ أيضاً ـ ورد فيه قوله ﷺ: (اقتدوا بالذين من بعدي، أبي بكرٍ وعمر)[٢] وهذا نصٌّ على أنه يتولّى الأمر بعده، وورد ـ أيضاً ـ ما يدلّ إشارةً إلى خلافته، فمن ذلك:

قوله ﷺ: بينا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا جَاءَنِي أَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبو بَكْرٍ الدَّلْوَ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ له، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَاسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ)[٣].

---

(١) أحمد ١/١٨٨، وأبوداود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٢٠).

(٢) أحمد ٥/٣٨٢، والترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، والحاكم ٣/٧٥.

(٣) البخاري (٣٦٧٦).

فإنّ في هذا إشارةً إلى أنه سيستخلف، إلى أنه سيكون خليفة على الأمّة، وأنّ خلافته ستكون فتحاً.

كذلك من فضله أنه يهرب الشيطان منه، قال: النبي ﷺ: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ)**[1] يعني أنه يهرب الشيطان منه ومن ظلّه؛ وذلك لقوته، وصرامته، وجهره بالحقّ ونحو ذلك.

وكان النبي ﷺ يحبه وكان رضي الله عنه يلازمه دائماً. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: **(افتح له وبشره بالجنه)**، ففتحت له، فإذا هو أبوبكر، فبشرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: **(افتح له وبشره بالجنة)**، ففتحت له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله ثم استفتح رجل فقال لي: **(فاتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه)**، فإذا عثمان فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله ثم قال: (الله المستعان)[2]. وهذا يدل على أنه حريصاً على ملازمة النبي ﷺ والسير معه.

ولم يتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ من الغزوات، بل كان مواظباً على الخروج معه، في كل ما خرج فيه، وما عُهد أحدٌ كملازمته له، إلاّ ما كان من أبي بكرٍ رضي الله عنه ونحوه، ولـمّا احتضر أبو بكر رضي الله عنه رأى أنّ الأولى بالخلافة عمر رضي الله عنه

---

(١) البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٢) البخاري (٣٦٩٣)، ومسلم (٢٤٠٩).

فعهد إليه، لم يعهد أبو بكر إلى أولاده، وله أولاد، لم يجعل ذلك من باب الوراثة والحميّة، ولكنه رأى الكفاءة والأهلية في عمر بن الخطاب ﷺ فعهد إليه، وأوصاه بوصايا كثيرة، تدلّ على نصحه، وعلى ثقته فيه؛ ولذلك كان أبو بكرٍ ﷺ من أفرس الناس، حيث استخلف عمر ﷺ ولمّا استُخلف عمر ﷺ استمرَّ الجهاد في سبيل الله، فصار يجهّز الجيوش، ويحثّهم على الجهاد في سبيل الله، وفي عهده فتحت العراق بأكملها، والشام، ومصر، وبيت المقدس، الذي هو الأردن وفلسطين الآن ونحوها، وقد سافر بنفسه إلى الشام مرّتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك لتفقّد أحوال المسلمين، والحرص على الأعمال التي يعملونها، وتنظيمها، مع ما يلاقيه من المشقّة والصعوبة في السفر، كما هو معروفٌ في السفر في ذلك الوقت.

كان ﷺ مشهوراً بالزهد؛ ولذلك يقول الناظم:

قالوا فمن تالي أبي بكر الرضا قلتُ الإمارة في الإمام الأزهدِ

يعني: أنه أهلٌ أن يكون إماماً، وأنه من أهل الزهد في الدنيا، فإنه لم يتوسع فيها، ولم يتوسّع في المآكل والمشارب والملابس والمساكن، بل قنع منها باليسير، حتى ذكر أنه خطب مرّةً وعليه قميصٌ فيه أربع عشرة رقعة، بمعنى أنه لم يكن يأخذ من الدنيا ما يحتاجه من بيت المال، وإنما يكون كآحاد الناس.

ولّما جعل الديوان الذي هو توزيع المال على المهاجرين والأنصار، كان يعطي المهاجرين الأوّلين أربعة آلاف، وأعطى ابنه عبد الله ثلاثة آلافٍ ونصفاً، فقيل له: إنه من المهاجرين، فقال: إنما هاجر به أبوه، يعني أنه ليس مثل الذين هاجروا بأنفسهم، ولماّ طعن جعل الخلافة في الستّة، الذين هم بقية العشرة،

ولم يجعلها في أولاده، وقال: يحضرهم عبد الله، يعني: ابنه، وليس له في الخلافة شيء، كلّ ذلك من زهده في الدنيا.

كان ﷺ متواضعاً غاية التواضع، وكان يتفقّد شعبه، ويتفقّد المستحقّين المساكين في المدينة ليلاً، حتى إنه كان يدخل على امرأةٍ عجوزٍ مسنّة، ثمّ يخدمها، بأن ينظّفها ويخرج ما في بيتها من الأذى، وهي لا تعرف أنه أمير المؤمنين، وهكذا سمّي بالفاروق، فاروق أحمد، أي: الفاروق الذي فرّق الله به بين الحقّ والباطل، بحيث إنه أظهر الحقّ ونصره، وبلّغ وبين، وقد حفظ الكثير من العلم، وروى الكثير من الأحاديث.

فهو فاروق الإسلام:

فـــاروق أحمـــد والمهـــذّب بعـــده

يعني: أنه منقّى، وأنه لم يكن من أهل الدنيا الدنيّة، ولا من أهل الرّغبات قليلة الفائدة، وكان - مع ذلك - عابداً، كثير العبادة، حتى كان كثير البكاء، إذا مرّ بآيةٍ فيها تخويفٌ أخذ يكرّرها، حتى يبكي، حتى رؤي على خدّيه خطّان من أثر البكاء، ومن أثر الخوف، ذكر أنه نصر الشريعة.

نـــصر الـــشريعة باللّـــسان وباليـــد

وذلك لأنه كان سيفاً مسلولاً على كلٍّ من ناوأ الإسلام؛ فلأجل ذلك نصر الله به دينه، وأظهر به الإسلام؛ لشجاعته ولقوّته ولصرامته فلا يتجرّأ أحدٌ أن يخالف شيئاً من تعاليم الإسلام في زمنه.

استخلف ﷺ في السنة الثالثة عشر من الهجرة، ودامت خلافته عشر سنين إلاّ قليلاً، حيث قتله غلامٌ للمغيرة، يقال له: أبو لؤلؤة، ثمّ لمّا طعن قيل له: من تستخلف؟ قال: ما أرى أحقَّ بالخلافة من الستة، الذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فنصّ على عثمان، وعليٍّ، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وجعل الخلافة لا تخرج عنهم.

وكان سبب قتله: أنّ ذلك الغلام كان كافراً، يملكه المغيرة بن شعبة، وكان صانعاً يصنع الأرحية فجاء إلى عمر وقال له: اشفع عند سيدي ـ الذي هو المغيرةـ أن يخفّف عني من الضريبة؟ فقال: أنت غلامٌ صانعٌ، تكتسب، وضريبتك يسيرةٌ قليلة، فأكنّ العداوة له ذلك العبد، وأضمر أن يقتله، وقتله وهو في نفس الصلاة، في صلاة الفجر، بعدما كبّر جاء إليه بسكينٍ لها طرفان محدّدان، وقد سقاها سمّاً، فطعنه طعناتٍ في بطنه، فالتفت وقال: طعنني الكلب، ثمّ إنّ ذلك العلج أخذ يطعن في الناس، حتى طعن ثلاثة عشر، فقبض عليه رجلٌ، وألقى عليه برنساً، ولمّا رأى أنه قبض عليه قتل نفسه.

هذه منزلة هذا الخليفة ﷺ وأرضاه في هذه الأمّة الإسلامية، ومع ذلك فقد وقع فيه الرافضة، الذين هم أعداء الله، وأخذوا يعيبونه وينشرون عنه مساوئ سيّئةً لا أصل لها، كلّها ممّا لفّقوه من الأكاذيب، ونسوا أو تناسوا زهده وورعه، ونسوا جهاده وبذله، لما يبذله في سبيل نصر الإسلام، وجحدوا ذلك كلّه، وخيّل إليهم أنه مغتصبٌ للخلافة، وليس مستخلفاً، وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كلّهم ـ في نظرهم ـ مغتصبون للخلافة، وبكلّ حالٍ

فإن المسلمين يعرفون فضل الخلفاء الراشدين، ويعترفون بما لهم من الفضل على الأمّة؛ فإنّ الله ـ تعالى ـ أظهرهم وقوّاهم، ونصرهم على كلٍّ من خالفهم، أو ناوأهم، وانتشر الإسلام في عهد أبي بكرٍ ﷺ، وفي عهد عمر ﷺ، انتشاراً كبيراً، وفتحت الكثير من البلاد، في الشام، ومصر، وأفريقيا، ووصلت الفتوحات إلى خراسان، واستمرّت إلى أن قتل عثمان ﷺ.

فهذا بيان أنّ لهم الفضل على الأمّة، وأنهم خلفاء راشدون، كما سمّاهم بذلك النبيُّ ﷺ بقوله: (وعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ)[1] فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعلنا من أتباعهم.

والعشرة هم أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجرّاح، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله.

أمّا أبو عبيدة ﷺ فإنه مات في خلافة عمر ﷺ وأمّا سعيد بن زيد فإنه ابن عمّ عمر، ابن ابن عمّه؛ ولأجل ذلك ما جعله من أهل الشورى، ولا جعله من المرشّحين للخلافة، مخافة أن يقال: إنه قد حاباه؛ لقرابته منه، فلأجل ذلك اقتصر على هؤلاء الستّة، الذين هم: عليٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعدٌ، وعبد الرحمن بن عوف، جعل الأمر شورى بينهم.

---

(١) أحمد ١٢٦/٤، وأبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٨).

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

قالوا فثالثهم فقلتُ مسارعاً ... من بايع المختار عنه باليدِ
صهر النبيِّ على ابنتيه ومن حوى ... فضلين فضل تلاوةٍ وتهجّدِ
أعني ابن عفّانَ الشهيد ومن دعِي ... في الناس ذا النورين صهر محمّدِ

الشرح:

في هذا خلافة عثمان بن عفّان ﷺ وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وذلك أنّ النبيَّ ﷺ مات وهو عنه راضٍ، وقد حصل له فضائل، فهو ثالثهم، وقبله اثنان، أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهم.

ومن فضائله: أنّ النبيَّ ﷺ بايع عنه باليد، وذلك في بيعة الرضوان، وسببها: لمّا كان النبيُّ ﷺ في الحديبية، وأراد أن يرسل من يتفاوض مع قريشٍ في طلب الصلح، أو في طلب السماح لهم بالدخول إلى مكّة؛ لأداء عمرتهم، فلم يجد أقربَ من عمر، فعرف عمر ﷺ أنه شديدٌ عليهم، وأنهم لا يقبلون منه، وأشار عليه بعثمان ﷺ؛ وذلك لأنّ عثمان ﷺ له قرابةٌ من أكابرهم، كأبي سفيان ومن معه من بني أميّة، فأرسله ليستأذنهم في الدخول؛ لأجل أداء العمرة وتكميلها، وتأخر عثمان ﷺ قليلاً، وقالوا له: هذا البيت فطفْ به، وكمّل عمرتك، فقال: ما كنتُ لأطوف ونبيُّ الله ﷺ لم يطفْ، لا أطوف حتى يطوف ويدخل، ثم نقل إلى النبيِّ ﷺ خبرٌ كاذبٌ أنّ عثمان ﷺ قد قتل، فلماً نقل ذلك الخبر استاء لذلك، وأحزنه ما سمعه، فعند ذلك عزم على مناجزة قريش، وقال: (بايعوني) فبايعوه بيعة الرضوان، المذكورة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ولمّا تمّت بيعتهم

وكانوا بايعوه على ألاّ يفرّوا أو على أن يقاتلوا إلى أن يقتلوا، أو يفتح الله، ولا يفرّون من القتال، فلماّ تمّت بيعتهم قال النبيُّ ﷺ بيده اليمنى: **(هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هَذِهِ لِعُثْمَانَ)**[1] وبايع بيده، يده بايع بها لعثمان، يقولون: فكانت يد النبيِّ ﷺ أفضل من يد عثمان لو بايع بها، فهذا معنى قوله:

من بايع المختار عنه باليد

المختار: هو النبيُّ ﷺ بايع عن عثمان، وقال ﷺ: **(هَذِهِ لِعُثْمَانَ)**.

فحصلت له بيعة الرضوان، فكان من المرضيِّ عنهم، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

ثمّ من فضائله: أنه صهر النبيِّ ﷺ على ابنتيه؛ وذلك لأنه تزوّج - قديماً - بنت النبيِّ ﷺ رقيّة رضي الله عنها، وهاجر بها إلى الحبشة، ثمّ رجع بها إلى المدينة، ثمّ مرضتْ لماّ خرج النبيُّ ﷺ إلى بدر، وبقيَ يمرّضها إلى أن ماتتْ، ولماّ ماتت كان للنبيِّ ﷺ بنتٌ ثانيةٌ، هي أمّ كلثوم رضي الله عنها، فزوّجه بأمّ كلثوم، وبقيت عنده، ولا شكّ أنه رزق أولاداً من الزوجتين، وإن لم يشتهر أولاده منهنّ، ثم ماتت أمّ كلثوم، ولماّ ماتتْ قال النبيُّ ﷺ: **(لو كانت عندي ثالثةٌ لزوجته)**[2] فهكذا يسمّى صهر النبيِّ ﷺ على ابنتيه.

ومن فضله: أنه حوى فضلين، فضل تلاوةٍ وتهجّد، فضل التلاوة: هو أنه قد حفظ القرآن، فكان يكثر من قراءة القرآن، حتى قالوا: إنه يختم القرآن في كلِّ

---

(١) البخاري (٣٦٩٩).

(٢) الإمام أحمد في فضائل الصحابة ٤٨١/١، ٥٠٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٣/٣٩، ٤٤، وابن سعد في الطبقات ٥٦/٣.

ليلة من ليالي السنة إذا صلى العشاء كبّر، وابتدأ من سورة البقرة، واستمرَّ يقرأ سورةً بعد سورة، إلى آخر اللّيل، فيختم آخر اللّيل، وتكون ركعةً واحدة؛ ولذلك كان له فضل التلاوة، وكذلك فضل التهجّد، أنه من أهل التهجّد.

ومن فضائله: أنه الذي جمع القرآن، لما مات النبي ﷺ لم يكن القرآن مجموعاً في موضعٍ واحد، فأشار عمر ﷺ على أبي بكرٍ أن يجمع القرآن، حتى لا يذهب منه شيء، فاستدعى زيد بن ثابت ﷺ، ثمّ بعد ذلك كلّفه أن يجمع القرآن، فتتبع القرآن وكتبه في صحف، مخافة أن يفقد منه شيء، ولماّ مات أبوبكر ﷺ كانت تلك الصحف عند عمر ﷺ، وقد جعلها في صحفٍ متساوية، ولماّ مات عمر ﷺ جعلها عند ابنته حفصة بنت عمر رضي الله عنها، إحدى أمّهات المؤمنين.

وفي عهد عثمان ﷺ كثر الاختلاف بين القرّاء الذين يقرؤون من الحفظ، وصار بعضهم ينكر على بعض، يقرأ هذا بزيادةٍ وهذا بنقص، حسب ما تعلّموا من الحفظ، فعند ذلك أشير على عثمان ﷺ أن يجمعهم على مصحفٍ واحد، فاستدعى زيد بن ثابتٍ ﷺ ومعه جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، أو من أولاد الصحابة رضي الله عنهم، وأخذ تلك الصحف التي كانت عند حفصة، وأمرهم أن ينسخوها في هذه المصاحف، ورتّبوها على هذا الترتيب، بدؤا بالفاتحة ثمّ بالبقرة ....، إلى أن ختموا بسورة الناس، ثمّ أرسل إلى كلِّ قطرٍ مصحفاً، فأرسل إلى أهل مكّة مصحفاً، وإلى أهل المدينة مصحفاً، وإلى الشام، وإلى أهل مصر، وإلى أهل العراق، واختصّ لنفسه مصحفاً، وبقيت تلك المصاحف هي التي يعمل بها المسلمون؛ ولذلك يسمّى: المصحف، أو القرآن الرسم العثماني، أي: أنّ هذا المصحف الذي بهذا الرسم هو الرسم الذي رسمه عثمان ﷺ، وكان قد اختصّ لنفسه مصحفاً من تلك المصاحف،

وكان يقرأ فيه، وكان دائماً يتهجّد، يحيي اللّيل، قلّما ينام في اللّيل إلاّ قليلاً؛ فلذلك حوى هذين الفضلين، فضل التلاوة والإكثار من القراءة، وفضل التهجّد الذي هو التهجّد في اللّيل، كان هذا فضله، ثم يقول الناظم:

أعـــني ابـــن عفّـــان الـــشهيد

يعني: أنه رزق الشهادة؛ وذلك لأنّ بعض الأعراب قد ثاروا عليه، وقالوا: إنك أخلفت سيرة الشيخين قبلك، وحاولوا أنه يتنازل عن الخلافة، فامتنع من ذلك، وقال: إنّ النبي ﷺ أخبرني: بأني سوف أتولى فلا أخلع ثوباً قد ألبسنيه الله، ثمّ ذكر هؤلاء الذين حصروه، قال أبو أمامة بن سهل: كنا مع عثمان وهو محصور في الدار، وكان في الدار مدخل من دخله سمع كلام من على البلاط، فدخله عثمان، فخرج علينا وهو متغير لونه، فقال: (إنهم ليتواعدوني بالقتل آنفا)، قلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين، قال: (ولِمَ يقتلونني)، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس)** فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله، ولا قتلت نفساً فبم يقتلوني)[1]، ولكن مع ذلك تسلّطوا عليه، ودخلوا عليه وقتلوه، وكانت أول قطرةٍ قطرت على المصحف، على قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فصار شهيداً؛ لأنه قتل مظلوماً، ثم انتقم الله من أولئك الذين قتلوه، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ

---

(١) أبوداود (٤٥٠٢)، والترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠٢٤)، وابن ماجه (٢٥٣٣).

سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]، قال: إنّ عثمان ﷺ قتل مظلوماً، ولاشكّ أنه سينتصر الذين يطالبون بدمه، ثم أن معاوية ﷺ أخذ يطالب بدمه فانتصر بعد ذلك، فتحقّق قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

صار عثمان ﷺ شهيداً؛ لأنه مقتولٌ ظلماً، ومن قتل ظلماً فإنه يعدّ مع الشهداء، له أجر الشهيد، ولو لم يكن في معركة القتال.

ثمّ من فضائله: أنه يدعى في الناس ذا النورين، وسبب ذلك: أنه زوج ابنتين من بنات النبيّ ﷺ رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما، فهما نوران في حقّه، فهو صهر محمّد ﷺ، وهو ذو النورين، وهو صاحب الفضلين، وهو الشهيد، وهو الذي بايع عنه النبي ﷺ بيده.

وقد اعترض بعض أعدائه الذين يطعنون فيه: بأنه لم يشهد بدراً، وأحداً وبيعة الرضوان وهو معذور في هذا كله كما جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتَ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا فَقَالَ: مَنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمُ فَقَالُوا: هَؤُلاءِ قُرَيْشٌ قَالَ: فَمَنْ الشَّيْخُ فِيهِمْ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: ابْنُ عُمَرَ تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ، أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ له، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ له رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ

وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: (هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ) فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ فَقَالَ: (هَذِهِ لِعُثْمَانَ) فَقَالَ لَه ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ)[1].

ومن فضائله ﷺ أنه من الخلفاء الراشدين، الذين أمرنا أن نقتدي بهم، كذلك ـ أيضاً ـ من العشرة المبشرين بالجنّة، وقد تمّت له الخلافة، واستمرّ في الخلافة ثنتي عشرة سَنة، سار فيها سيرةً حسنة، وولّى القائدين، وفتحت كثيرٌ من البلاد في خلافته، من بلاد أفريقيا، ومن بلاد خراسان، وجبي إليه أموال لبيت المال، كلّ ذلك بتدبيره، وبسيرته الحسنة رضي الله عنه وأرضاه.

(١) البخاري (٣١٣٠، ٣٦٩٨).

قال النَّاظم رحمه الله:

قالوا: فرابعهم فقلت مبادراً: من حازَ دونهُمُ أُخُوَّةُ أحمدِ
زوجُ البَتولِ وخيرُ من وطئَ الحصى بعدَ الثَّلاثة والكريمُ المحتدِ
أعني أبا الحسَنِ الإمامَ ومن له بين الأنام فضائلٌ لم تُجْحَدِ

الشرح:

قوله:

قالوا: فرابعهم فقلتُ مبادراً: من حازَ دونهَمُ أُخُوَّةَ أحمدِ

يريدُ: مَنِ الذي يلي الثَّلاثة ويكون رابعهم في الفضل، ورابعهم في الخلافة إذا أقرَرْنا بأنَّ الثلاثة أفضل الأمَّة، فمنِ الذي يَلِيهم في الفضل، أي: يكون هو رابعهم والجواب هو عليٌّ ﷺ، كذلك إذا عَرَفْنا أنَّ الثَّلاثة خلافتهم خلافةٌ صحيحة، وأنَّهم الخلفاء الرَّاشدون، فإنَّ رابعهم هو عليٌّ ﷺ، فهو الخليفة الرَّابع، وهو رابعهم في الفضل، أي: هكذا ترتيبهم، وقد اتَّفق أهل السنَّة على أنَّ ترتيبهم في الخلافة: أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعلي رضي الله عنهم، هذا ترتيبهم في الخلافة، وهكذا ـ أيضاً ـ على الصَّحيح ترتيبهم في الفضل، أفضلهم: أبو بكر، ثمَّ عمرُ، ثمَّ عثمان، ثمَّ عليٌّ ﷺ.

وقد ذكر شيخُ الإسلام في الواسطيَّة: أنَّ هناك قوماً فضَّلوا علياً ﷺ على عثمان ﷺ، وقوماً جعلوهما في الفضلِ سواء، أي: في رتبةٍ واحدة، وأنَّ هذه المسألة التي هي مسألة التَّفضيل بين عثمان وعلي رضي الله عنهما لا يُضَلَّلُ فيها؛ لأنَّها محلُّ اجتهاد.

ولا شكَّ في فضلِ عثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهما، وكثرة مناقبهما، وكونُ كلٍّ منهما صهراً للنبي ﷺ ولكلٍّ منهما فضائلُ تختصُّ به، وفضائلُ يشاركه فيها غيره.

والصَّحابة كلُّهم اشتركوا في فضل الصُّحبة؛ لأنَّهم صحبوا رسول الله ﷺ، والصَّحابي: هو الذي رأى النبي ﷺ، وهو مؤمن، وماتَ على الإيمان.

فحازوا فضل الصُّحبة، كذلك المهاجرون حازوا - أيضاً - فضل الهجرة، وكلُّ العشرة المبشَّرين بالجنَّة قد حازوا فضل الهجرة، لكنَّ عثمان ﷺ هاجر هجرتين: هجرةً إلى الحبشة، وهجرةً إلى المدينة، فيكون لجميعهم فضائل، ولجميعهم مناقب يُمْدحون بها، ومنهم الشَّيخان: عثمانُ، وعليٌّ رضي الله عنهما، فعليٌّ ﷺ هو أقربهم نسباً بالنبي ﷺ، ولهذا يقول النَّاظم:

مـن حـازَ دونهَـمُ أخـوَّة أحمـدِ

أي: أنَّه لقرابته كأنَّه أخٌ للنبي ﷺ ويُستدلُّ على ذلك بقوله ﷺ: **(أما ترضى أن تكون مِنِّي بِمَنْزِلة هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ ليس نَبِي بَعْدِي)**[1] ومعلومٌ أنَّ هارون ﷺ هو أخو موسى ﷺ، ولكنَّه أيضاً نبي، عدَّه الله مع الأنبياء، وأرسله مع موسى ﷺ لَمَّا طلبَ موسى أنْ يكونَ معه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، فاستجاب الله ذلك وقال: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [طه: ٣٥].

فموسى وهارون عليهما السلام أخوان شقيقان، وكلاهما نبيٌّ نزل عليه الوحي، وأمَّا عليٌّ ﷺ فإنَّه بمنزلة الأخ للنبي ﷺ مع أنَّه ابنُ عمِّه لا أنَّه أخوه من

---

(١) البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

أبٍ ولا من أم ؛ ولكنْ لقوَّة قرابته شبَّهه بالأخ ، هذا معنى كونه حازَ دونهم أي : دون الثَّلاثة هذه الأخوَّة ، أخوَّة النبي ﷺ ومع ذلك فإنَّ جميع الصَّحابة ﷺ حازوا قصبَ السَّبق ؛ فهم جميعاً كالإخوة للنبي ﷺ وكالأنصارِ له ، ولكنَّ بعضهم أقربُ من بعض : نسباً ، وصهراً ، ونصْرةً ، وإيماناً .

وقد كان لعليٍّ ﷺ إخوةٌ من أبيه ، فمنهم من مات على الكفر ؛ كما ذُكِرَ ذلك عن طالب بن أبي طالب ، ومنهم من أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ، ثمَّ إلى المدينة ؛ وهو : جعفر ابن أبي طالب ، ومنهم من أسلمَ بعدَ الفتح أو وقتَ الفتح ؛ وهو : عقيل بن أبي طالب ، فإنَّه أخو عليٍّ ﷺ ولكنَّ الذي حازَ هذه الأخوَّة هو عليٌّ ﷺ مع أنَّ جعفرَ بن أبي طالب كان أخاً له ، وكان له فضل ، ولَّما قدمَ من الحبشة قابله النبي ﷺ وقبَّلَ ما بين عينيه ، وكان ذلك وقتَ فتح خيبر ، وقال : (**لا أدري بأيهما أفرحُ بفتحِ خيبر أم بقدومِ جعفر**)[1] فهذا ونحوه دليلٌ على فضلِ عليٍّ وفضلِ جعفر وغيرهم من الصَّحابة ﷺ .

كذلك مع كونه أخاً أو شبهَ أخٍ للنبي ﷺ فإنَّه - أيضاً - أوَّلُ من أسلم من الصِّبيان ، وقد رتَّبَ العلماء المسلمين أولاً ؛ فقالوا : إنَّ أوَّلُ من أسلمَ من الرِّجال أبو بكرٍ ﷺ وأوَّلُ من أسلم من النِّساء خديجة رضي الله عنها ، وأوَّلُ من أسلم من الموالي زيد بن حارثة ﷺ ، وأوَّلُ من أسلم من الصِّبيان عليٌّ ﷺ وأوَّلُ من أسلم من العبيد بلال ﷺ ، فيكونُ عليٌّ ﷺ أسلمَ صغيراً .

وله فضائلُ أيضاً ؛ ومن جملة فضائله : أنَّه زوج البَتول ، وهي فاطمة بنت النبي ﷺ.

---

(١) الحاكم ٢٠٨/٣ ، والطبراني ١٠٧/٢ ، وشرح معاني الآثار للطحاوي (٦٩٠٤).

والبَتلُ: هو القطْعُ أو الانقطاع، وسمِّيت بَتُولاً: لانقطاعها عن غيرها من النِّساء في الفضل، أو لانقطاعها في العبادة، كذلك مريم بنت عمران عليها السلام تسمَّى ـ أيضاً ـ البتول، فهو زوجُ فاطمة رضي الله عنها؛ وذلك لَمَّا هاجر إلى المدينة مع النبي ﷺ وهاجر النبي ﷺ ببناته، زوَّج عثمان ﷺ بابنته التي هي أمُّ كُلْثوم رضي الله عنها، بعدما ماتت بنته الأولى، التي هي رقيَّة رضي الله عنها في سنة اثنتين، في وقت وقعة بدر، وبقِيتْ فاطمة رضي الله عنها، فخَطَبها عليٌّ ﷺ وزوَّجها إيَّاه ﷺ فهو زوج البَتُول، وهذه فضيلة لعليٍّ ﷺ أنَّه قد صاهر النبي ﷺ على ابنته فاطمة رضي الله عنه، وإنْ كان عثمان ﷺ قد صاهره قبله؛ لأنَّه تزوَّج رقيَّة رضي الله عنها بمكَّة، وهاجرتْ معه إلى الحبشة، وماتت سنة اثنتين، ثمَّ تزوَّج ﷺ بعدها أمَّ كُلْثوم رضي الله عنها، وماتت ـ أيضاً ـ عنده، ولا شكَّ أنَّه قد رُزِق منهما أولاداً.

ذَكَرَ ـ أيضاً ـ: أنَّه خيرُ من وطِئَ الحصى بعد الثَّلا ـه، أي: في الخيريَّة وفي الفضل هو خيرُ من وطِئَ الحصى، والمراد: أنَّه خير الناس، ومعلومٌ أنَّ كلَّ من مشى على الأرض اضطُرَّ إلى أنَّه يطأُ الحصى، إمَّا حافياً وإمَّا ناعلاً؛ فكأنَّه يقول: إنَّه خير الأنام، ولكنْ بعد الثَّلاثة، أي: بعد أبي بكرٍ وعمر وعثمان رضي الله عنهم، مع الاتِّفاق على فضل الثَّلاثة، وللاتِّفاق على أنَّهم الخلفاء، فهو يليهم في الفضل، وكذلك يليهم في الخلافة؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قُتِلَ عثمان ﷺ سنة (٣٥هـ) بايعه أهل المدينة، وتمَّت البيعة له بالمدينة وبمكة، ولكنَّ بعضَ الصَّحابة رضي الله عنهم خرجوا لطلب الثَّأرِ من قتلة عثمان، وكان أكثرهم في العراق، فعند ذلك لم تتمَّ له البيعة منهم، وكذلك ـ أيضاً ـ لم تتمَّ له البيعة من أهل الشام؛ حيثُ بايعوا

معاويةَ على الأخذِ بثأرِ عثمان من الذين قتلوهُ من أولئك الثوَّار، ولكنَّ جمهور الأمَّة على أنَّه هو الخليفةُ بعد الثلاثة؛ ولذلكَ لَمَّا انتصرَ على أولئك الذين خرجوا مع عائشة رضي الله عنها في وقعة الجمل تمّت له البيعة في العراق، وثبتت إقامته هناك، فهو خير من وطِئَ الحصى بعد الثَّلاثة في الفضل، وأولى الناس بعد الثَّلاثة بالخلافة، التي تمّت له لَمَّا بايعه المسلمون هناك كلُّهم، ذكر أنَّه:

هـو الكـريمُ المحْـتِدِ

أي: أنَّه كريمُ الأصل؛ ذلك لأنَّه في الأصل من بني عبد المطَّلب، ومن بني هاشم، وكذلك من بني عبد مناف، ومن قريش، يشاركُ النبي ﷺ في ذلك كلِّه، فالمحْتِد: هو الأصل والمرجع الذي يُرْجَعُ إليه، فهو كريمُ الأصل، يعني: كريمَ النَّسب، وكريمُ الأفعال، يوصف بذلك، ويكون هذا صفةً ثابتةً يُمدح بها ﷺ ويكون له الأصل والفضل في كرمه، وهو - أيضاً - يُوْصَفُ بالشَّجاعة، فإنَّه شجاعٌ في القتال؛ ولأجل ذلك لَمَّا بارزه عمرو بن عبد ودٍّ في الخندق ضربه في أصل رقبته فأرداه قتيلاً.

كذلك - أيضاً - أمَّره النبي ﷺ في غزوة خيبر لَمَّا أعطاه الرَّاية وقال له: **(انفذْ على رسلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثمَّ ادعهمْ إلى الإسلام، وأخبرهمْ بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فو الله لئنْ يهديَ الله بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ من أن يكون لك حمْرِ النَّعم)**[1]، ولَمَّا وصل إلى المحلِّ الذي فيه القتال برزَ له كبيرٌ من أكابرِ وشجعان اليهود، يقال له مرْحبْ، وأخذَ يرْتجز ويقول:

قد علمَتْ خيبر أنِّي مَرْحبُ شاكِ السِّلاح بطلٌ مجرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

(١) البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

فبرز له عليٌّ ﷺ وقال:

أنا الذي سمَّتني أمِّي حيدرهْ　　كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظرهْ

أكيلُهم في الصَّاع كيلَ السَّندرة(١)

ثمَّ إنَّه قاتلَ مرْحباً وهزمه، وفتحَ الله على يديه، وتحقَّقَ ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: **(لأعطينَّ الرَّاية غداً رجلاً يحبه الله ورسولَه أو قال يحب الله ورسوله، يفتحُ الله على يديه)**(٢) فتحقَّق هذا الفتح، وتحقَّق أنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَه، وأنَّ الله ـ تعالى ـ يحبُّه ورسولُه، فهو كريمُ المحْتَد.

ذكرَ أنَّه: أبوالحسن، هكذا كنيته؛ لأنَّ الحسنَ هو أكبر أولاده، وهو ابنُ فاطمة؛ فهو أكبر أولاد فاطمة، ولد سنة اثنتين أو ثلاث من الهجرة، فكان يكنىَّ عليٌّ به، أي: هو أبو الحسن، وقد يقال أبو الحَسَنَين، يعني: الحسن والحسين، وكلاهما من فاطمة رضي الله عنها، لمَّا زوَّجه النبي ﷺ بفاطمة رضي الله عنها وُلِدَ له منها ثلاثة أبناء: الحسن، والحسين، ومُحْسن، ويمكنُ أنَّ محْسِناً مات صغيراً؛ لأنَّه لمْ يشتهر، وولدَ له ـ أيضاً ـ ابنةٌ تسمَّى أمَّ كلثوم، كلُّ هؤلاء أولاده من فاطمة رضي الله عنها، فهو أبُ الحسنين.

قد ذكرَ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في ترجمته في البداية والنِّهاية(٣): أنه افتخر بأبيات يقول فيها:

محمدٌ النبيُّ أخي وصهري　　وحمزةُ سيِّدُ الشُّهداءِ عمِّي

وجعفرٌ الذي يُمسي ويُضْحي　　يطيرُ مع الملائكة ابنُ أمِّي

---

(١) الأبيات في قصة فتح خيبر، مسلم (١٨٠٧).

(٢) البخاري (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).

(٣) ١١/١١٧.



وبنتُ محمدٍ سكني وعِرْسي مسوَّطٌ لحمها بدمي ولحمِي
وسِبْطا أحمدٍ ولداي منها فأيُّكُمُ له سهمٌ كسهمِي
سبقتُكُمُ إلى الإسلام طُراً صغيراً ما بلغتُ أوانَ حلمِي

كذلك ـ أيضاً ـ يقول:

ومن له بين الأنام فضائل لم تُجْحدِ

أي: فضائلُ كثيرة لا يجحدها أحدٌ؛ لاشتهاره بها، فهو يُعتبر كأخٍ للنبي ﷺ وقد اصطفاه بمصاهرته، وكان يغزو معه جميعَ الغزوات، إلاَّ أنَّه خلَّفه في تبوك؛ لأجل أنْ يبقى مع أهله.

كذلك من فضله سبْقه إلى الإسلام؛ لأنه كان ربيبَ النبي ﷺ وذلك لمَّا كثُرَ أولادُ أبي طالب قال بعض إخوتِهِ: نريدُ أنْ نخفِّفَ عنه؛ لقلة ذات يده، فأخذَ العبَّاس جعفراً، وأخذ النبي ﷺ علياً وكفَلَهُ، فلمَّا بُعِث النبي ﷺ كان عليٌّ تحتَ كفالة النبي ﷺ، فبادر إلى الإسلام قبل غيره.

ثمَّ لمَّا كان خليفةً في العراق كان له سيرة حسنة، وكان عادلاً، وكان ـ أيضاً ـ زاهداً في أمورِ الدُّنيا؛ ولمَّا كان كذلك أحَبَّه أهل العراق، وصاروا يعتقدون فضله، ثمَّ لمَّا تمَّت الخلافة لمعاوية ولَّى على العراق بعضَ مَنْ هُمْ يَوَدُّونَه؛ كزياد ابن أبيه، وبعده ابنه عبيدالله بن زياد، ثمَّ بعدهم ـ أيضاً ـ الحجَّاج، فكان هؤلاءِ: زيادٌ، وابنه، والحجاج ولاةً على العراق، وكانوا يريدون أنْ يكرِّهوا أهل العراق إلى عليٍّ، ويحبِّبُوا إليهم معاوية، وجميع آلِ مروان أو بني أميَّة، فكانوا يُظْهِرون كراهيَّة علي أو مسبَّته، ولمَّا كانوا يُظهرون مسبَّته، كان الذين يحبُّونه يجتمعون ويتذاكرون فضائله، ودخل بينهم من يريد الزِّيادة في فضله حتى لا يُجْحد فضله، فعند ذلك وقعَ الكذبُ من أولئكَ الذين يدَّعون محبَّته،

ويسمُّون أنفسهم: شيعةَ عليٍّ، أي: أهل محبَّته وأهل وِدَادِه، وقع منهم بعد ذلك: أنّهم غلوا في محبَّته، وأنّهم أخذوا يكذبون عليه فضائل ليست صحيحة، يريدون بذلك: جلبَ الناس إلى مودَّتِهِ ومحبَّته، فأدّى بهم ذلك إلى الغلو الزَّائد فيه، وحملهم ذلك على أنْ يُنْكروا خلافة الخلفاء قبله، ويدَّعون أنَّهم مغتصبون؛ وذلك لأنَّ تلاميذهم لمَّا سمعوهم يذكرون تلك الفضائل الكثيرة استغربوا أنْ تكون له هذه الفضائل مع أنَّها مكذوبة، ومع ذلك لا يكونُ هو الخليفة، بل يكون غيره أفضلَ منه وأولى بالخلافة، ولا يكون هو إلاَّ الخليفة الرَّابع، فلم يجدوا بداً من أنْ يسكّتوا هؤلاء التَّلاميذ بتقرير أنَّ الذين قبله كلَّهم مغتصبون، وأنَّهم كتموا الوصيَّة، وأنَّ علياً هو الوصي، وأنَّ من قبله ليس لهم حقٌّ في الخلافة، فنتجَ من ذلك: غلوُّ هؤلاء الرافضة في عليٍّ؛ بسبب تلك الأكاذيب التي لفَّقوها، يريدون بذلك: رفعَ مكانته، ولا شكَّ في فضله، وفي مكانته، ولكنْ تلكَ الأكاذيب التي جمعوها ليست صحيحة، ولا حاجةَ به إلى أنْ يَتِمَّ أمره، ولا حاجة به إلى أنْ يكونَ أفضل من غيره.

وقد ثبتَ أنَّه ﷺ بايعَ الخلفاءَ قبله، بايع أبا بكر ﷺ، وصار كوزيرٍ له، ثمَّ بايعَ عمر ﷺ، ثمَّ بايعَ عثمان ﷺ، وصار كالوزير لهم، وصار - أيضاً - ينفِّذ الأوامر، ويُقِيْمُ الحدود التي يقرِّرُونها، ويفوِّضونه لإقامتها، وكلُّ ذلك دليلٌ على أنَّه مُعتَرِفٌ بالخلفاء قبله.

وتواترَ عنه ﷺ أنَّه قال: أفضل هذه الأمَّة بعدَ نبيِّها: أبو بكرٍ، ثمَّ عمر.

وسأله ابنه محمد المعروف: (بابنِ الحنفيَّة) قال: يا أبتِ: من أفضلُ الناس؟ قال: أبو بكر، قال: ثمَّ من؟ قال: عمر، يقول: فخشيتُ أنْ يقول: ثمَّ

عثمان، فقلتُ: ثمَّ أنتَ يا أبتِ، فقال: ما أبوكَ إلاَّ واحدٌ من المسلمين، قال ذلك على وجه التَّواضع، وإلاَّ فإنَّ له الفضل.

ومن الأدلة على اعْترافه بالخلفاء قبله: أنَّه سمَّى أولادَه بأسماءِ الخلفاء، فله ابنٌ اسمه أبو بكر، وآخر اسمه عمر، وآخر اسمه عثمان، وقد قُتِلُوا مع الحسين في سنة ٦١هـ، ولكنْ عاشوا بعد أبيهم مدَّة، وهذا يدلُّ على أنَّه كان محبًّا للخلفاءِ الذين قبله، ولا عبرةَ بما يقوله الرَّافضة عنه: أنَّه مظلومٌ، وأنَّه مضْطَهَدٌ، وأنَّه بايعهم مُكْرهاً، وأنَّه هو الأولى ولكنَّ الذين قبله مغتصبون، مع أنَّهم يصفونه ﷺ بأنَّه أشجَعُ الشُّجعان، وبأنَّه أقدر من غيره على القتال، وإذا كان كذلك فكيف مع ذلك يدينُ لمنْ قبله بالخلافة، ويضعف أمامهم، ويبايعهم مُكْرهاً مع ما ذكروا من شجاعته وقوَّة بأسه، فلا يُغترُّ بما يقوله أولئك الرَّافضة في فضله، ويكفي في فضله ما ذكره الأئمة رحمهم الله.

وقد استوفى ابن كثير في تاريخه فضائل الخلفاء الرَّاشدين، وإنْ كان قد أفردَ فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في ثلاثةِ مجلَّدات، ولكنَّه ذكر ما يدلُّ على الفضل الذي يكون سبباً في الاعتراف بفضائِلِ الخلفاء الأربعة ونحوهم.

فهكذا يعترفُ المسلمون بفضلِ هؤلاءِ الخلفاء، ويعرفون لهم مكانتهم، ويدينون الله بمحبَّتهم، ولا يطعنون في خلافتهم، ولا يطعنون - أيضاً - في شرفهم وفضْلهم، ويقولون: إنَّ ما شجر بينهم، وما حصل بين عليٍّ وطلحة والزُّبير رضي الله عنهم من الفتنة إنَّهم معذورون فيها، وكلٌّ منهم مجتهد، ولا نخطِّئُ هؤلاء الذين يريدون الأخذ بثأرِ عثمان ﷺ، ولا علي ﷺ الذي يريدُ

جمع الكلمة، ومبايعته حتى تقوى معنويَّته فبعد ذلك يقاتِلُ من خرج عن طاعته، وكذلك ـ أيضاً ـ ما وقع بينه وبين معاوية ﷺ، فمعاوية ﷺ له مكانته.

وبكلِّ حالٍ فإنَّا ندينُ بفضائِلِ الصحابة ﷺ ومن جملتهم الخلفاء الرَّاشدون، ونقول: إنَّ لهم هذه الفضائِلِ التي ذُكِرَت في القرآن، والتي ذُكِرَت في السنَّة، ولا ننكر شيئاً من تلك الفضائِلِ، وبذلك نكون متَّبعين، ونسأل الله أنْ يرزقنا اتِّباعهم، والسَّير على نهجهم، ومحبَّتهم، وأنْ يحشرنا في زمْرتهم، إنَّه على كلِّ شيءٍ قدير.

قال النَّاظم رحمه الله:

(ولعمّ سيِّدنا النبيِّ مناقبٌ لو عُدِّدَتْ لم تَنْحَصِرْ بتعدُّدِ
أعني: أبا الفضلِ الذي استَسْقَى بِهِ عُمَرٌ أوانَ الجدبِ بين الشُهَّدِ
ذاكَ الهُمامُ أبو الخلائفِ كلِّهم نسقاً إلى المسْتظْهِرِ ابن المقتدي
صلَّى الإلهُ عليه ما هبَّ الصَّبَا وعلى بَنِيْهِ الرَّاكِعين السُّجَّدِ
وأدامَ دولتهم علينا سرمداً ما حنَّ في الأسحارِ كلُّ مغرِّدِ
قالوا: أبانَ الكَلْوَذانِيُّ الهدى قلتُ: الذي فوقَ السَّماءِ مؤيِّدِي

الشرح:

بعدَ أنْ ذكرَ الخلفاء الأربعة ذكر بعدهم عمَّ النبي ﷺ وهو العبَّاس بن عبدالمطلب ﷺ؛ وذلك لقرابته من النبي ﷺ، وكذلك لإسلامِهِ ونصرِهِ للنبي ﷺ ومع ذلك فإنَّ الرَّافضة لم تعْتَمِده كأحدِ أهل البيت، وكذلك ذرِّيته، وكذلك أقاربه مع أنَّهم أقربُ الناس إلى النبي ﷺ فالعبَّاس ﷺ أقرب من علي ﷺ؛ ولهذا كان هو الذي عصَّبَ النبي ﷺ لو كان النبي ﷺ موروثاً لكان هو العاصب، ولقد كان على دين قومه، وبقِيَ كذلك، إلاَّ أنَّه كان معه حميَّةٌ للنبي ﷺ في أوَّل الأمر، كان النبي ﷺ يحميه أوَّلاً عمُّه أبو طالب، إلاَّ أنَّ أبا طالبٍ مات ولم يسلمْ، وكان في ذلك حكمة؛ وهو: أنَّ قريشاً تعْترفُ بفضله، وتعْترفُ بمكانته، فبقِيَ على دين قومه، وامتنعَ مِنْ أنْ يدخل في الإسلام، ولمَّا حَضَرَتْهُ الوفاة دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبو جهْلٍ فَقَالَ: **(أَيْ عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)** فَقَالَ أَبو جَهْلٍ وَعَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ)**

فَنَزَلَتْ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)[1].

فمات قبلَ أنْ يُسلمْ، خلافاً لما تعتقدُه الرَّافضة الذين غلوا في علي، فإنَّهم يعتقدون أنَّ أبا طالبٍ أسلم.

وقد كَتَبَ أحدهم رسالة كبيرة، عنوانها: (أبو طالبٍ مؤمنُ قريش)، ونوقِشَ ذلك المؤلِّف الذي هو منْ بلْدَةِ القطيف، يقال له: (الخُنَيْزِي) وادَّعى أنَّه لا يعرف إلاَّ كتبهم التي يتَّبعونها، أي: كتب الرَّافضة، وأظهر النَّدم بعد طولِ المناقشة، وأظهر التَّوبة، والله أعلم بسرِّه.

ولَمَّا ماتَ أبو طالب قامَ العبَّاس مقامه في نصرةِ النبي ﷺ، وفي حمايته، فكان يقوم بحمايته من أذى المشركين، ولَمَّا يسَّر الله أنْ آمنَ به الأنصار - أهل المدينة - الأوس والخزرج وجاءهم ليبايعوه جاء معه العبَّاس، وقال لهم: إنَّ محمداً ابنُنَا، ونحن أهله، وإنَّه قد اختار أنْ ينْتقل إليكم، فإنْ أنتمْ التزمتمْ بنصرته وتأييده فالتزموا بذلك، وإنْ خفتمْ أنَّكم لا تنصروه فدعوه معنا، فإنَّه في أمنةٍ وحفظٍ أو كما قال، فقالوا: نحن آمنَّا به، وسوف نقوم بنصره، وبقِيَ بمكة إلى سنة ثمان، ولَمَّا فُتِحتْ خيبر كان هناك رجلٌ قد أسلمْ، وحضر فتْح خيبر، وقال: يا محمد: ائذنْ لي أنْ أكذبَ عليك حتى أتخلَّص من أهل مكة وأخلِّص ديوني وأموالي، فجاء إلى أهل مكة وقال: إنَّ محمداً قد أُسِر، وسوف يُؤتَى به إليكم لتقتلوه أو تنتقموا منه، ففرحوا بذلك، ولَمَّا سمِع بذلك العبَّاس عُقِر

(١) البخاري (٣٨٨٤).

عليه، وتحسَّر، فجاءَهُ ذلك الرجل، يقال له الحجَّاج بن علاط، وقال: إنَّ ابن أخيكَ قد افتتحَ خيبر، وقد أمسى قبلَ ليلتين أو نحوها عروساً بابنةِ سيِّدهم، بشَّره بذلك، وبعد أشهر هاجرَ من مكة إلى المدينة واستقرَّ بها، وفرحَ به النبي ﷺ، وكان قد أُسِرَ مع أسرى بدر، ودفعَ فديةً لنفسه، ودفع أيضاً فديةً لابن أخيه عقيل بن أبي طالب، وعوَّضه النبي ﷺ لمَّا جاءته الغنائم وجاءته الجزية، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فكان يغتبطْ ويقول: «قد تحقَّقتْ واحدة؛ وهي: أنَّ الله - تعالى - عوَّضنا خيراً مما أُخِذَ منَّا، ونرجوا الثَّانية التي هي المغفرة» ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ولمَّا كان في المدينة كان يتعاطى التجارة أرسل النبي ﷺ مرَّةً عمرُ على الصَّدقة، فلمَّا رجعَ قال: منعَ ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعبَّاس بن عبد المطَّلب، فقال ﷺ: (**مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ** ورسوله **وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا قَدْ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ وَمِثْلُهَا مَعَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**)[1] أي: شقيق أبيه أو أخو أبيه أو يعادل أباه، فتحمَّل عنه زكاته تلك السنة ومثلها معها.

وكان العباس بن عبدالمطب رضي الله عنه قد سأل النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن تحل فرخص له في ذلك[2]، فلذلك قال ﷺ: (**فهي عليَّ**

(١) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).

(٢) أحمد ١/١٠٤، وأبوداود (١٦٢٤)، والترمذي (٦٧٨)، وابن ماجه (١٧٩٥).

ومثلها معها)[١]، وفي هذا دليلٌ: على أنَّه يجوز أنْ يتحمَّلَ صدقة أقاربه؛ كعمِّه.

وبكلِّ حالٍ فإنَّ العبَّاس ﷺ له مناقب لو عُدِّدت لم تنحصرْ لكثرتها، والعجز عن عددها.

ذكرَ: أنَّه (أبو الفضل) هذه كنيته، وكان الفضل من أفضل أولاده، وهو الذي ركب مع النبي ﷺ، فكان رديفه من مزدلفة إلى جمرة العقبة.

وذكرَ أيضاً: أنَّ عمر ﷺ استَسْقَى بالعبَّاسِ ﷺ أوانَ الجدْب، وذلك في سنة ثمانِ عشرة، لمَّا أصابهم جدبٌ، ويسمَّى: عام الرَّمادة، قدَّم العبَّاس ﷺ وقال: اللهمَّ إنَّا كنَّا نتوسل بنبيِّنا ﷺ فَتَسقِيْنَا، وإنَّا نتوسل بعمِّ نبيِّنا فاسْقِنَا، فيُسْقَون[٢]، هكذا توسَّلَ به، وكان العبَّاس ﷺ يرفعُ يديه ويدعو ويؤمِّنون، ويقول مثلاً: اللهمَّ إنَّهم قدَّموني ولستُ بخيرهم، ولكنِّي أكبرهم سناً، وأقربهم نسباً إلى نبيِّك ﷺ، وإنَّا ندعوكَ أنْ تُغِيْثَنا وأنْ تَسقِيَنَا، فيُجِيْب الله ـ تعالى ـ دعْوته بدعواتهم الصَّالحة، استَسْقَى به أوانَ الجدْب.

(بين الشهَّد) أي: بين الحاضرين ومنهم أكابر الصَّحابة رضوان الله عليهم ونحوهم.

ذكرَ بعد ذلك: أنَّه (الهمام) كلمةٌ يُمدَحُ بها، يعني: أنَّه رفيع الهمَّة، وأنَّه رفيع المرتبة، ولو لم يَعْتَرِفْ بقرابته وبأهليَّته الرَّافضة الذين يدَّعون أنَّ بني العبَّاس مغتصبون، وأنَّ الخلافة والولاية لعليٍّ ولذريَّته؛ فلذلك يحاربون بني العبَّاس، بل

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) البخاري (١٠١٠).

ولا يعترفون للعبَّاس بأنَّه من أهل البيت، مع أنَّه أقربُ أهلَ البيت، وأقربُ بني عبد المطَّلب المسلمين إلى النبي ﷺ بعد حمزة ﷺ، لكنَّ حمزة ﷺ لا شكَّ أنَّه أفضل منه؛ لأنَّه أسلم متقدِّماً بمكَّة، وهاجرَ مع المتقدِّمين، وقاتلَ قتالاً شديداً في بدر، واستُشهِد في غزوة أحد، والعبَّاس ﷺ أسلمَ بعد ذلك في سنة ثمان، يعني: أظهر الإسلام، وإنْ كان قبل ذلك مسلماً يُخفِي إسلامه، ثمَّ هاجر.

فهـــــــو الهمـــــــــام

أي: ذو الهمَّة العليَّة.

ذكرَ بعد ذلك: أنَّه:

أبــــــو الخلائــــــف كلِّهـــــم

يعني: والدُ الخلائف، الخلفاء الذين استُخلفوا، وكان أوَّلهم السَّفَّاح الذي استُخلِف سنة (١٣٢هـ) بعد أنِ انقضتْ خلافةُ بني أميَّة، فصفتْ له الخلافة، ودخلتْ البلاد الإسلامية في خلافةِ بني العبَّاس ما عدا الأندلس وما حولها، التي استولى عليها الداخل، وصارتْ فيها خلافةٌ لبني أميَّة، فالعبَّاس أبو الخلائِفِ كلِّهم.

(نسقاً) يعني: واحداً بعد واحد إلى زمن المُسْتَظْهِر المقتدي، وكان المُسْتَظْهِر هو الخليفة الذي أدركه المؤلِّف، يعني: النَّاظم الذي هو الكَلْوَذاني، كان في زمن المُسْتَظْهِر المقتدي، يعني: أنَّهم الذين قاموا بالخلافة.

هذه فضائِلُ العبَّاس، واعترافٌ بأنَّهم خلفاءُ الأمَّة إلى زمنه، وإلى أنْ تسلَّطتْ عليهم دولة التَّتار، وقتلوا الخليفة، وذلك بتسليط الله - تعالى - لهم، وكذلك بتدبيرٍ من وزيره الذي يقال له: ابن العلقمي، الذي زيَّن لهم أن

يقتلوه، وكان رافضياً يحبُّ أنْ تنتقل الخلافة من العبّاسيّين إلى العلويّين، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ أهانه وأذلّه.

في بعض النُّسخ ذكرٌ لمعاوية ﷺ، يقول فيها ـ في النُّسخة التي كتبها ابن مانع رحمه الله في عقيدته ـ يقول:

ولابـنِ هـندٍ في الفـؤادِ مـودَّةٌ   ومحـبَّةٌ فليرغمَـنَّ المعـتدي
ذاكَ الأمـينُ المجتبـى لكـتابةِ الـ   ـوَحْـيِ المنـزَّل ذو التُّقـى والسُّؤدَدِ

في هذا ـ أيضاً ـ اعترافٌ بفضيلة معاوية ﷺ، وهو ابن هند بنت عتبة بن ربيعة، وأبوه أبو سفيان؛ أسلم سنة الفتح سنة ثمان، ولمّا أسلم أسلم ابنه معاوية، وقال: أريدُ أنْ تصْطَفِيَه كاتباً للوحي، فجعله النبي ﷺ يكتب الوحي، فهو أمين، ويقول:

ذاكَ الأمـين المُجْتبـى

يعني: الذي اخْتِيْرَ لكتابة الوحي المنزَّل، وهو:

ذو التُّقـى والسُّؤدد

أي: أنّه من أهلِ التُّقى، ومن أهل السُّؤدد، أي: والسِّيادة، أبوه ـ أيضاً ـ كذلك، فقد كان قائداً في المسلمين، تولّى الجيوش وقاتل، وقال: إنّي أريدُ أنْ تؤمِّرني أقاتلُ المشركين كما كنتُ أقاتل المسلمين، فتولّى ذلك، واستمرَّ في القتال، وفُقِئَت إحدى عينيه في الجهاد، ولكنَّ ذلك ما ردَّه عن استمراره، فقاتل إلى أنْ فُقِئَت عينه الثانية، ثمَّ بعد ذلك صبر إلى أنْ استُشْهدَ أو مات ﷺ.

معاوية وأخوه يزيد كانا من القوّاد الذين رَضُوا بقيادة الجيوش الإسلامية، فأخوه يزيد قائدٌ موفّق، استمر في قتال المشركين في الشام وما حولها إلى أنْ مات

شهيداً، ولمَّا مات أمَّر عمرُ ﷺ أخاه معاوية على تلك الجيوش، فدبَّرها تدبيراً حسناً، واستمرَّ هناك، وأحبَّه أهل الشام؛ لحسن سيرته، وصلاح أعماله، ولمَّا تولىَّ عثمان ﷺ ولاَّه تلك المقاطعة التي هي الشام كلها، فصار والياً مُرْشِداً موفَّقاً إلى أنْ قُتِلَ عثمان ﷺ، ولمَّا قُتِل طالب بالثَّأر، وطلب من عليٍّ ﷺ أنْ يمكِّنه من قَتَلة عثمان الذين ظلموه وقتلوه وهو المصلِّي، والتَّالي، والموفَّق، ولكنَّ علياً ﷺ خاف إذا مكَّنه منهم أنْ يحصل عليه اختلاف؛ لأنَّ أولئك الذين اشتركوا في قَتْلِ عثمان ﷺ كانوا سادةً في قومهم، ولا يستطيعُ أنْ يقبض عليهم قبلَ أنْ تتمَّ له الخلافة، فطلب من معاوية ﷺ أنْ يبايعه، ويبايعه أهل الشَّام، وتجتمع الكلمة، ويؤمِّن البلاد، وبعد ذلك يمكِّنه من قَتَلة عثمان ﷺ، ولكنَّه امتنعَ إلى أنْ حصلتْ الفتن، واستقلَّ معاوية ﷺ بالشَّام.

ثمَّ بعد ذلك لمَّا قتلَ عليٌّ ﷺ تولَّى الخلافة ابنه الحسن بن علي ﷺ ثم بايع معاوية ﷺ حقناً للدِّماء، وتمَّت خلافته، ثمَّ بعدَ ذلك قام بعده ابنه يزيد، وإنْ كان قد اشتهر عند الرَّافضة لعنه وسبُّه، قالوا: لأنَّه الذي تسبَّب في قتل الحسين، مع أنَّه لم يتسبَّب في ذلك، وإنَّما الذي قتله أو أرسلَ إليه من يقتُلُه أو يقاتله هو عُبَيد الله بن زياد والي العراق، وتمَّ الأمر والخلافة ليزيد، ثمَّ بعد ذلك أرسلتْ بيعة لابن الزُّبير بمكة، وفي الشام لعبد الملك، ثمَّ لمَّا قُتِلَ ابن الزبير تمَّت الخلافة لبني مروان، واستمرَّت إلى سنة ١٣٢هـ، حيثُ قاتلهم بنو العبَّاس، فتمَّت الخلافة لبني العبَّاس، واستمرُّوا كذلك إلى سنة ٦٥٦هـ؛ حيثُ قُتِلَ آخرهم، وهو المستعصم أحد خلفاء بني العبَّاس.

وبكلِّ حالٍ فإنَّ هذه أوَّلهم ونهايتهم، ولا يزالُ ـ والحمدُ للهِ ـ الأمر ظاهراً؛ فلذلك ختم هذه الرِّسالة وهذه المنظومة بالصَّلاة على النبي ﷺ.

صلّى الإلـه عليه ما هبَّ الصَّبَا وعلى بنيه الرَّاكعين السُّجَّدِ

قيل: إنَّ الضَّمير يعود إلى العبَّاس، صلَّى الإله عليه؛ وذلك لأنَّه من آل النبي ﷺ، ونحن نصلِّي عليهم ونقول: اللهمَّ صلِّ على محمد وآلِ محمد، فالعبَّاس من آل محمد.

وقيل: إنَّ المرادَ: الصَّلاة على النبي محمدٍ ﷺ وهذا قولٌ من الأقوال، وإنْ كان الضَّمير يعودُ إلى العبَّاس،

صلَّى الإلـه عليه

يعني: على العباس.

ما هبَّ الصَّبَا وعلى بنيه

يعني: الخلفاء ونحوهم.

الرَّاكعين السُّجَّد

أي: الذين دائماً هم ركَّعٌ سجود.

وأدام دولتَهم علينا سرْمداً ما حن في الأسفار كل مغرد

يعني: أبقى دولتَهم التي هي دولة بني العبَّاس، وكان لها قيادةٌ في عهدِ النَّاظم رحمه الله، أدامها عليهم: دعى الله أنْ تدومَ دولتَهم سرمداً.

(ما حنَّ في الأسفار كلُّ مغرِّد)

أي: ما دامَ أنَّ كلَّ مغرِّد، يعني: من الطيُّور، يحنُّ ويغرِّدُ بصوته، هكذا ختمَ النَّاظم هذه الأبيات بالدُّعاء لدولة بني العبَّاس ولخلافتهم، والدُّعاءُ كذلك للصَّحابة ﷺ.

في رسالة الشيخ ابن مانع يقول فيها:

فعليهم وعلى الصَّحابة كلِّهم صلاة ربِّنا تروحُ وتغتدِ

أي: ندعوا الله بأنْ يعمُّهم بصلاته وبفضله في الغدوِّ والرَّواح، ثمَّ يقول:

إنِّي لأرجو أنْ أفوزَ بحبِّهمْ وبما اعْتقدتُ من الشَّريعة في غدِ

أي: إنِّي أرجو أنَّ الله ـ تعالى ـ يُسْعِدُني بمحبَّة جميع الصَّحابة، وبمحبَّة أولئك الخلفاء الرَّاشدين، ومن كان على سيرتهم ونهجهم.

وبما اعْتقدتُ

أي: في عقيدتي لهذه العقيدة التي نظمتها هنا.

وبما اعْتقدتُ من الشَّريعة

أي: أنَّ الله ـ تعالى ـ يرزقني الفوز بذلك.

في غدِ

أي: في يوم القيامة.

ثمَّ ختمَ ذلك بقوله:

(قالوا: أبان الكَلْوذانيُّ الهدى قلتُ: الذي رفعَ السَّماءَ مؤيِّدِي)

وفي هذه النُّسخة:

فوق السَّماءِ مؤيِّدِ

يعني: أنَّ الله ـ تعالى ـ يُرْجَى أنَّه يُؤيِّدُ كلَّ من قصدَ الحق.

(الكَلْوَذانيُّ) هو هذا النَّاظم: محفوظ بن أحمد رحمه الله تعالى، وبلدته يقال لها كَلْوَذَان، قريبة من بغداد، يعني: أنَّه بيَّن الطَّريق الذي هو طريقٌ سليمٌ لمنْ سلكه يهتدي، لمَّا اعترفَ في آخره بقوله:

الذي فوق السَّماءِ

يعني: اعترافٌ بأنَّ الله ـ تعالى ـ فوقَ السَّماء، أي: فوق السَّمواتِ العلى، وأنَّه الذي رفعَ السَّماوات.

وفي نسخة ابن مانع:

قلتُ: الذي رفَعَ السَّماءَ مؤيِّدي

وكلاهما بمعنى: الله ـ تعالى ـ هو الذي فوقَ السماء، وهو الذي رفعَ السَّماء، وبسطَ الأرض، وأيَّد كلَّ من أيَّده بنورٍ وبرهانٍ منه ﷻ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الخاتمـة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين،

أما بعد:

منظومةُ الإمام محفوظ بن أحمد الكَلْوَذاني، والمعروف بأبي الخطَّاب الحنبلي، أحد تلاميذ القاضي أبي يعلى، هذه المنظومة اشْتَهرتْ، وذكرها المؤرِّخون؛ ومنهم: ابن الجوزي وغيره في مؤرِّخاتهم، وفي تراجُمِهِم، ومع ذلك ما حضِيْنا بأحدٍ شرحها شرحاً كاملاً وافياً، ولمّا كان كذلك اقترحَ الشَّيخ الدكتور أخونا /**طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر**: أنَّها تُشْرَح، ثمَّ إنَّه سجَّلها بصوته، ثمَّ طلبَ منِّي أنْ أشرحها، وابتدأ يقرأُ منها أبياتاً؛ كبيتينِ أو ثلاثة، ويطلب مني أنْ أشرحها، وتولَّينا شرحها في عدَّةِ مراحل، والغالب أنَّه يقعُ ونحنُ في الطَّريق راكبين إلى إحدى الجهات، فنشرحها، والسَّيَّارة تسير، فقد يقع في الشرح، وكذلك في قراءة المتن شيءٌ من اختلاف الصَّوت أو تغيُّره، وقد يقع في الشرح اختصارٌ في بعض الأماكن، وكذلك توسُّعٌ واستطرادٌ في بعض المواضع.

وقد عُرِفَ بأنَّنا نشرحُهَا من الحفظِ ومن الذَّاكرة، لا نرجعُ في شرْحها إلى شيءٍ من المراجع، ولو راجعْنا الكتب العقديَّة لأمكنَنَا أنْ نتوسَّع، وأنْ نَنْقُلَ نُقُولاتٍ من كلام العلماء من أهل السنَّة في باب الاعتقاد، في هذه المواضع، ولكنَّا آثرنا الاختصار على ما يتعلَّق بالأبيات وتحليلها، وما قيل حولها، وقد يسَّر الله ـ تعالى ـ لنا إتمامها لعلَّ الله ـ تعالى ـ أنْ ينفَعَ بها.



ونوصِي طلاَّب العلم أنْ يعتنوا بأمورِ العقيدة التي هي أساس الدِّين، أنْ يعتنوا بها: حفظاً، وقراءة، وكذلك يعتنوا بالعملِ بها، ونشرها، وتأييدها، حتى يكونوا من أهل العقيدة الرَّاسخة، التي هي عقيدة أهل السنَّة والجماعة، وحتى يسْلَمُوا من عقائد المبتدعة، الذين يُنكرون كثيراً من الصِّفات، أو يخالفون العقيدة السَّليمة، التي عاش عليها سلفنا الصَّالح؛ من الصَّحابة رضوان الله عليهم، والتَّابعين، والأئمة المهتدين، وقد اختلفوا واضْطَرَبُوا في ذلك، فصارتْ أقوالهم يكسر بعضها بعضاً، ويُبْطلُ بعضها بعضاً، على حدِّ ما أنشده شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في آخر كتابه الحمويَّة بقوله:

حججٌ تهافتُ كالزُّجاج تخالُها حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسور

هكذا شبَّه حججهم بالزُّجاج الذي يضرب بعضه بعضاً، فإنَّ الضَّارب مع المضروب كلاهما تتكسَّر، فهكذا حججُ هؤلاء الذين يُنكرون هذه العقليَّات وهذه السَّمعيَّات، ويعتمدون على أقوالٍ بعيدةٍ عن الصَّواب، فهي أفكارٌ افتكروها، لو رجعوا إلى العقيدة السَّليمة المأخوذة من الكتاب والسنّة لسلموا من هذه الاعتراضات، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله العفو والغفران، والله تعالى أعلم.

وصلَّى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
تقديم المحقق	٥
تقديم فضيلة الشيخ الدكتور عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين	٩
نص عقيدة الكلوذاني	١٩
مقدمة العقيدة	٢٢
ثناء العلماء على الإمام أحمد	٢٧
صفات الإمام أحمد	٣٠
صفات طالب العلم	٣٧
بم يعرف المكلف ربه	٤٢
إثبات صفات الله	٥٦
صفة العلو	٦٤
معنى الاستواء	٧٠
أول المخلوقات	٨٠
صفة النزول	٨٢
إثبات الرؤية لله	٨٨
صفة العلم	٩١
صفة الكلام	٩٥
الخلاف في أفعال العباد	١٠٣
أصول المعتزلة	١٠٣
أقسام الإرادة	١٠٩

الموضـــوع	الصفحة
تعريف الإيمان	١١٢
الخلفاء الراشدون	١١٧
أبوبكر الصديق ﷺ	١١٩
عمر بن الخطاب ﷺ	١٢٨
عثمان بن عفان ﷺ	١٣٥
علي بن أبي طالب ﷺ	١٤١
العباس بن عبدالمطلب ﷺ	١٥١
معاوية بن أبي سفيان ﷺ	١٥٦
الخاتمة	١٦١
الفهرس	١٦٣